الفصل الثانى

دور المغاربة فى الحياة الاقتصادية بالقاهرة فى العصر الفاطمى

(١) الصناعـــــــة

(٢) التجـــــــارة

أ - داخليـة

ب - خارجيـة

(٣) المستوى المعيشى

لم تلبث القاهرة بعد تأسيسها فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى أن إزدهرت بها العديد من الصناعات حيث سعى الفاطميون فى منافسة الخلافة العباسية خاصه فى مظاهر الأبهه والعظمة .

١ - صناعة النسيج :

كان إنشاء دار الكسوة بالقاهرة خير شاهد على إزدهار الصناعة بالقاهرة خاصه صناعة المنسوجات ، فكان يتم فيها تصنيع أفخر أنواع الثياب والبز ، وقد عمل الفاطميون على التقرب وإستمالة أهل البلاد المصريين فقد قرر الخليفة كسوة للناس على إختلاف درجاتهم مرة فى الشتاء ومرة فى الصيف ، وعين لذلك أمهر الصناع من المغاربه ليصنعوا للخليفه بصه خاصه افخر الثياب وللناس عامه باقى أنواع الثياب كل حسب درجته ومكانته فى الدولة .

ولعل ذلك كان من أسباب إنتعاش صناعة النسيج فى القاهرة الفاطمية وهو إنشاء دار الكسوة . فنجدها تبدأ فى القاهرة قوية وفى إزدهار . كذلك كان الصناع المغاربة على درجة كبيرة من الجودة والإتقان الملحوظ حتى أن الصناع المصريين عملوا على تقليد بعض قطع النسيج لمجاراتهم .

وهذا لايقلل من شأن الصانع المصرى خاصه وله شهرته فى صناعة النسيج منذ القدم ولكن كانت المنسوجات[1] الفاطمية وإن كانت ذات طابع مغربى ، فإن بشكلها وإبداعها هذا ، يكون بالجديد على الصانع المصرى .

ولا أدل من جمال صنع المنسوجات التى كانت تخرج من دار الكسوة ، من وصف الكسوة التى أمر المعز بصنعها للكعبة المشرفة .

وبدأ ذلك فى سنه ٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م ، من دار الكسوة وقد تحدث العديد من المؤرخين فى وصف كسوة الكعبة القادمة من القاهرة إلى مكة المكرمة . مثل ابن ميسر وغيره من المؤرخين لتوضيح جمال منظرها وبهائها وجودة صنعها ، وكانت ترسل مرتين فى السنة وكانت تصنع من الديباج الأبيض شعار الدولة الفاطمية [2] .

---

(١) ناصر خسرو : سفر نامه ، ص ١٩٠ .

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ - ص ١٥١ .

- ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٤٧ .

كذلك من دلائل إزدهار صناعة النسيج فى القاهرة ما كان يسمى بمناسبة"عيد الحلل" وذلك عندما أمر الخليفة المعز بإخراج كسوة العيد لأمراء والأساتذة المحنكين المغاربه وغيرهم من كبار الدولة فى القاهرة [١] .

ومن الجدير بالذكر ذلك التطوير الذى أضافه المغاربه فى إستخدام النسيج فلم يقتصر على صناعة الثياب بل إستخدم النسيج فى العديد من الأشياء والصناعات مثل الخيم والفساطيط [٢] المصنوعة من القماش ، كذلك صنعوا من النسيج المساند والمخاد والمراتب والستور وكانوا فى بعض الأحيان يحلون الديباج الأصفر والأحمر محل الجلود والسروج .

ومن الجديد والطريف فى ذلك العصر إقبال الأمراء والأعيان المغاربه على مختلف أنواع النسيج سواء احتاجوا إليه أو لم يحتاجوه لأنه كان يعد نقداً مدخرا خاصه الأنواع الغاليه والثمينه من النسيج ، وبهذا أصبحت المنسوجات الفاخرة فى ذلك الوقت وكأنها من بين أنواع الثروات [٣] .

وبالاضافة الى دار الكسوة كانت القاهرة فى العصر الفاطمى بها العديد من الخزائن التى أدت أيضا الى نشاط الصناعة بها منها خزانه السروج والتى يعمل بها العديد من الصناع المهرة وأيضا خزائن الخيم وكان من بين الصناع المغاربه اشتهر الصانع أبى الحسن على بن الحسن الخيمى [٤] ولعل إسمه الأخير يشير الى صنعته ، وكان لهذه الخيام استخدامات عديدة فمنها ما يقام لكبار رجال الدولة وهى أيضا ذات أنواع عديدة منها المصنوعه من القماش المزركش ومنها المخملى الثقيل ، فكان ذلك وفقا لمكانه الشخص المصنوعه من أجله ، ففى بعض الأحيان تقترب من خيمة الخليفه أو تبعد عنها . وكان إبداع الصانع المغربى فى ذلك كبير جدا بحيث تبعث فى المشاهد لها الفخامه ، وكأن فناناً صنعها لامجرد صانع خيام فهى

---

(١) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٣٠-١٣٦ .

(٢) مفردها فسطاط ، وهى الخيمة الكبيرة ، لسان العرب .

(٣) حسين مؤنس : عالم الاسلام ، ص ٣٤٨ .

وعن ذلك يذكر أن كل رجل فى ذلك الوقت ، ميسور الحال يحرص أن يكون لديه تخت ثياب " صندوق من الأقمشة والثياب " المصدر السابق .

(٤) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ - ص ١٥٢ .

مبطنة من الداخل ببدائع النقوش المذهبة وأعمدتها ملبسه بأنابيب فضة [١] . أيضا هناك حزائن البنود والفرش والأمتعة وإنفرد العصر الفاطمى وصناع من المغاربة بصناعة الحُصر المطرزة بالذهب والفضة وأيضا الستور الحريرية المنسوجة بالذهب على اختلاف أطوالها وألوانها ، ومن المؤكد أن هذه المصنوعات لم تصل الى هذا الحد من الرقى الا نتيجة لوجود الصناع المهرة وأيضا للاشراف المستمر لتحسين وتطوير الانتاج فكان ذلك من المهام التى كانت على عاتق المغاربه خاصه فى بدايات الدولة الفاطمية وهذا هو الأساس . وخاصه أن الاشراف والخدمة فى دار الطراز كان لايتولاها إلا الأعيان وكبار رجال الدولة من المغاربة فى ذلك الوقت مثل أرباب العمائم والسيوف وكان له حق إختصاص الخليفه فى كل شىء عن دار الطراز [٢] .

وبالدراسة ثبت لنا أن دار الكسوة وإن كانت منشأة صناعية للمنسوجات الا أن ذلك لايمنع من وصول أفخر أنواع الثياب المختلفة من جميع مراكز صناعة المنسوجات فى مصر مثل البهنساوتنيس وغيرهما . من المراكز الى دار الكسوة فى القاهرة [٣] .

بمعنى أن هذه المنسوجات التى تصل من مراكز أخرى غير القاهرة توضع فى دار الكسوة بالقاهرة وعند الحاجة تصرف تذاكر بأمر من الخليفة أو صاحب الطراز وهو متولى دار الطراز ، عندما يتطلب الأمر . إذن دار الكسوة بالقاهرة فى ذلك الحال تشتمل على جميع أنواع الثياب المصنوعه بالقاهرة وخارجها [٤] .

كذلك كان هناك صناعة البسط والسجاد :

---

(١) يذكر ابن ميسر أن صانع صنع للأفضل ابن أمير الجيوش خيمة سماها خيمة الفرج اشتملت على ألف ألف وأربعمائه ذراع وقائمها بارتفاع خمسين ذراعا ، انفق عليها عشرة الاف دينار وقد مدحها جماعة من الشعراء . ابن ميسر - أخبار مصر .ص ٥٢.

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٣٨ .

(٣) القلقشندى : صبح ، جـ ٣ ، ص ٣٠٠ .

(٤) جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ ٦ ، ص ٧٠-٧٢ .

فقد كانت تلك الصناعة قبل مجيء الفاطميين قليله منحصرة ولم تكن على ذلك القدر من الجمال والإتقان . ويوجد فى متحف الفن الاسلامى بالقاهرة قطع من نسيج البسط والسجاد فى العصر الفاطمى وكانت البسط المصنوعة فى غاية الفن والدقة حتى قيل عنه أنه منافسا للايرانى الشهير ، وكان المغاربه يصنعون البسط فى القاهرة بأسلوب تقنى حديد فى ذلك الوقت من حيث طريقة النسج والشكل ونوع الزخرفه المنقوشه عليه وتحديد الألوان [١].

أما عن النساجين فى دور الطراز فقد كانوا يعملون بالأجر والمقصود هنا دور الطراز العامه أما الخاصه فكان النساجون يعملون لحسابهم الخاص ، حيث يأتى الناس اليهم بالغزل وهم يقومون بنسجه أو أنهم يشترون الغزل وينسجونه لحسابهم ثم يقومون ببيعه .

(٢) صناعة نسج الحرير :

انفردت القاهرة بالتميز والأهمية فى صناعة الحرير فى العصر الفاطمى وذلك نظرا للتاثير المغربى فى القاهرة من حيث هذه الصناعة فإنهم لم يتوانوا فى البحث عن التطوير والجودة والمنسوجات الحريرة وشجع الخليفه العزيز بالله على انتاج نوعين جديدين من نسج الحرير وهو العتابى [٢] والسقلاطون [٣] وكان الحرير يأخذ من بلاد الصين والهند وما أن توفرت المادة الخام حتى عمل الصناع المغاربه على إبتكار وتحديث العديد من المنسوجات الحريرية [٤].

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، جـ ٢ – ص ٤٩٦ .

(٢) ينسب الحرير العتابى الى بغداد .

(٣) ينسب الحرير المسمى بالسقلاطون الى بلاد الروم .

(٤) الدمشقى : الاشارة الى محاسن التجارة ، ص ٤٥ .

إذ تمكنوا من صنع قماش منسوج من الحرير الخالص فقد كان فيما سبق فى صناعة النسيج قبل العصر الفاطمى أن تصنع المنسوجات أو الأقمشة المطعمه بالحرير وليس المنسوجه من بدايتها حتى نهايتها من الحرير كما فعل الصناع المغاربه فى العصر الفاطمى. وبذلك تكون نقطة تحول هامه ورائدة فى صناعة نسج الحرير .

وكانت هناك أنواع من المنسوجات الحريرية مثل الديباج [١] – والتى لاتصنع إلا للخليفه الفاطمى فى بادىء الأمر إلا أن أفراد الشعب [٢] كانوا يحصلون على أنواع من الأقمشة الحريرية فكان ذلك تأثراً بالمغاربه في تفصيل الجلاليب والعمائم وتزينها بشرائط من الحرير [٣] وتعددت دور النسيج الحريرية فى القاهرة الفاطمية ورغم ذلك لم تكف حاجة البلاد من الأقمشة الحريرية بالرغم من كل تلك القيود التى أشار لها الفقهاء فى إستعمال الرجال للحرير ، فإنه يبدو مع حياة الناس فى ظل الحكم الفاطمى وأيضاً مانعموا به من ثراء كان وراء كثرة استخدام المنسوجات الحريرية[٣] للنساء والرجال خاصة لطبقة الحكام والأمراء .

(٣) صناعة الأصباغ والألوان :

إرتبطت صناعة الألوان والصباغة الى حد كبير بالنسيج والأقمشة ، ولقد إستطاع الصباغون إستخلاص الأصباغ اللازمة من المواد النباتية والحيوانية والمعدنية الموجودة فى البلاد أو خارجها [٤] فمثلا للحصول على اللون الأحمر كان يستخرج من مادة تسمى

---

(١) الديباج : هو قماش له لمعه وبريق ويعتبر تقليداً للحرير الصينى وكلمة ديباج فى الأصل فارسيه بمعنى – لباس السروج .

(٢) المسبحى : تاريخ مصر ، والمقريزى ، خطط ، جـ ١ ، ص ٥٠٩ .

(٣) يصف الدمشقى أنواع الحرير الجيد فيقول " افضله ما حسن صنعه ، وانتظمت نقوشه ودق حريره وخف وزنه واشرق لونه " – الدمشقى – الاشارة الى محاسن التجارة ، ص ٤٦ .

(٤) جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ ٦ – ص ٨٩ .

" اللعلى"[١] كذلك هناك ما يستخرج من العُصفر والقرطم والنبله وغيرها من المعادن مثل الشب والنطرون وكان من الإبداع المغربى فى الصباغة [٢] هو ظهور اللون القرنفلـــــــى بدرجاته كما الزهرة والأخضر الزرعى والأصفر العاجى والآزرق الفاتح أيضا من الاضافات الجديدة للصباغين المغاربه هو الصبغة باللون الذهبى ذو الألوان المتدرجة وهذا ما يؤكد مهارة الصباغين المغاربه وخبرتهم فى كيميانية الصباغة .

وبين الصباغين يتردد اسم " جعفر بن محمدْ الصباغ " فى نص من نصوص وثائق الجنيزة حيث كان من بين الصباغين المغاربه ومن الذين يعدوا فعلا من أمهرهم وهناك صباغ ماهر كان صاحب مصبغة بالقاهرة وهو " عروس بن يوسف " وهو من المهديه بتونس كما أنه عرف عنه نشاط آخر غير الصباغة حيث كان تجاراً خاصة اشتهر فى التجارة الخارجية .

وأما عن دور الاشراف على الصباغين فكان ذلك للمحتسب لمنع أية محاولات أو أساليب للغش فى الأصباغ المستخدمة فقد قيل أنه كان هناك من يصبغ الثياب بالحناء بدلاً من الفوه [٣] فتخرج حسنة المظهر لمدة قصيرة وسرعان ما يتغير لونه [٤] لذلك كانت الرقابة شديدة فى العصر الفاطمى فقد ظلت هذه الأصباغ ثابته حافظة على بهائها طوال تلك السنين وحتى الانْ فنجدها على ذلك فى متحف الفن الاسلامى .

---

(١) اللعلى : مادة مستخدمة فى الصباغة ذات لون أحمر عرفها المصريون بعد دخول العرب وفتح مصر وهى مادة تجلب من بلاد الهند ، المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ص ١٣ .

(٣) الفوه مادة تستخدم فى الصباغة لإعطاء لون أحمر ثابت .

(٤) سيد طه : الحرف والصناعات ، ص ٤٤ .

(٤) الصناعات الزخرفية :

هذا النوع من الفنون والصناعات الزخرفية له إرتباط وثيق بالمنسوجات والمتتبع لدراسة فن الزخرفة فى العصر الفاطمى يجد أنه يمر بمراحل أربع على مدى عهد الخلافه الفاطمية وكانت كل مرحله لها مميزاتها التى تختص بها ، وقد احتفظ لنا متحف الفن الاسلامى بمجموعات من قطع النسيج المزخرفه والتى توضح لنا هذه المراحل [١] .

فكانت المرحلة الأولى فى زخرفة المنسوجات على هيئة أشرطة متوازيه ومتداخلة مع بعضها البعض وعليها رسوم لحيوان أو طائر أو أزهار أو انسان وبالطبع هذه مرحلة توضح مفاهيم وأثر مغربى شيعى إذ يستخدمون الزخرفه بالرسوم والاشكال الأدمية وذلك مخالفا للسُنة لأن ذلك مكروه فى الإسلام [٢] .

وتأتى مرحلة أخرى فى فن الزخرفة إذ يبتكر الصانع المغربى الكتابه الخطية فى العديد من التصميمات التى لم تكن معروفه قبل مجىء الفاطميين لمصر .

وكانت هذه الكتابة الخطية مزينه بزخرفة نباتيه وبدأ ذلك التطور فى سنه ٤٤٣هـ كما أننا نرى بالدراسة تنوع الصانع المغربى فى فنون الزخرفة حيث يملأ الفراغ الموجود بين الحروف بأشكال هندسية دائرية – أيضا ومن تلك الابداعات ما وجد من قطعة كبيرة من الكتان عليها اسم الخليفة الفاطمى ومزينه بشريطان على كل منهما صف من الجامات الحمراء والسوداء ، وفى تلك الفترة أو المرحلة استخدم المغاربه خيوط الحرير من جميع الألوان فى تناسق تام مع الخيوط الذهبية [٣] . ويزينها أشرطة أفقيه يتوسطها رسم لزوجين

---

(١) حسن الباشا : الفنون الاسلامية - جـ ٣ ، ص ١٠٧ .

(٢) الذهبى – الكبائر – ص ١٩٥ .
حيث أورد فى كتابه تحريم التصوير فى الثياب والحوائط وغيرها .

(٣) مرزوق – الزخرفه المنسوجة – ص ١٠٦ .

من الصقور على أرضيه خضراء مصنوعه من الحرير والخيوط مصنوعه من الجلد المطروق بالذهب [١] .

وإستمراراً فى الابداع المغربى فى الزخرفة استخدم الحرير . فكانت هذه مرحلة أخرى جديدة فى فن الزخرفة وأهم ما يميزها هو استخدام الحرير الذهبى[٢]، لما له من عمق فى نفوس الناس لإقتنائه ، فكثر استخدامه فى زخرفة المنسوجات مع استعمال خط النسخ المدور لأول مرة فى زخرفة المنسوجات حيث كانت هذه الطريقة فى زخرفة المنسوجات متبعه فى بلاد المغرب ، وعند استقرارهم فى القاهرة نقلوها معهم ، حيث اصبح هذا النوع من الزخرفة بالكتابه بالخط النسخ المدور هو النوع المفضل فى زخرفة المنسوجات فى العصر الفاطمى الأخير وهكذا يمكننا القول أن هؤلاء الصناع المغاربه ظلوا فى حركة دائمه داخل دور الطراز الفاطمية وخارجها لاثبات مهارتهم ومقدرتهم على التنوع والإبتكار .

---

(١) كان الصناع فى العصر الفاطمى يقطعون الذهب الى صفائح رقيقه ثم ينسجونها الى خيوط ثم يمزجون الخيوط الذهبية مع الكتابه أو غيرها من النسيج ، سيد طه - الحرف والصناعات - ص ٦٨ .

(٢) كانت خيوط الذهب عبارة عن أمعاء الحيوانات التى لصقت بها صفائح الذهب وكانت تجلب من الخارج وتصل للقاهرة عن طريق ميناء الاسكندرية ، مرزوق - الزخرفة المنسوجة، ص ١٠٦ .

(٣) كان العرب يطلقون على مصانع النسيج دور الطراز وفى الأصل كانت تطلق على الكتابه الزخرفية فى بدايه الأمر ثم اتسع المدلول واصبح يشمل الكتابه على الورق والنسيج والمكان الذى تصنع فيه المنسوجات ، ابن عبد ربه - العقد الفريد - جـ ١ - ص ١٥٣ .

(٥) صناعة السكة الفاطمية :

تحقيقاً للنفوذ الفاطمى فى مصر وتعويضا لما فقدوه من مدن الغرب فى بلاد المغرب التى استقلت عن نفوذهم عقب دخولهم مصر .

عمل الفاطميون على قيام دور للضرب فى القاهرة . وتوضح دراسة السكه الفاطمية فى متحف الفن الاسلامى عن استخدام الصناع المغاربه فى صناعة الدنانير والفلوس والذى يتضح أيضا أنه كان هناك جهازا رسميا مسئولا عن تصميم هذه المسكوكات [١] .

أولا : صناعة الدنانير :

استخدم الصناع طريقتان أساسيتان فى صناعة الدنانير وهما :

١ - طريقة الصب فى القالب .

٢ - طريقة الطرق والضغط .

وسوف نقوم بعرض سريع لطريقة الصنع المستخدمة للسكه الفاطمية .

(١) طريقة الصب فى القالب :

وينقسم الى نوعين اما الصب فى قالب أصلى أو الصب فى قالب مشتق .

(٢) طريقة الطرق أو الضغط :

وهى تنقسم بدورها الى نوعين :

اما الضرب على قالب أصلى .

أو الضرب على قالب مشتق .

---

(١) عبد الرحمن فهمى - موسوعه النقود - ص ٢١٣ .

وفى الحقيقة أن الطريقة الأكثر شيوعا فى العصر الفاطمى هى طريقة صب النقود فى قالب مشتق حيث أن القوالب المشتقه كانت تنتج باعداد وفيرة ليصب فيها أعدادا كبيرة من الدنانير ، كما أن طريقة الطرق لم تستخدم بكثرة فى العصر الفاطمى نظرا لأنها تعطى شكلاً غير كامل الإستدارة [١] .

ثانيا : صناعة الدراهم :

كانت الدراهم فى العصر الفاطمى تصنع على يد أمهر الصناع المغاربه مثل الدنانير ولكن بالرغم من قله ما وصلنا من الدراهم الفاطمية ، الا أن أسلوب صناعتها يوضح أنها كانت تشكل بطريقة الطرق وتضرب على قالب أصلى [٢] أو مشتق وذلك بعمل قضبان من الفضه ثم ترقق وتلمح وتُقص الى قطع ثم توضع القطعة الفضيه وهى ساخنه بين قالبين احدهما خاص بالكتابه على الوجه والأخرى للكتابه على الظهر ويتم الطرق على القالب العلوى فتطبع الكتابات على وجهى القطعة الفضيه ، وهناك أمثال لدراهم الخلفاء الفاطميين مثل العزيز والحاكم والمستنصر والحافظ والعاضد محفوظه فى متحف الفن [٣] الاسلامى بالقاهرة .

ويتضح من دراسة صناعة السكه الفاطمية دور الصناع المغاربه فى تنفيذ وصنع السكه كما أن السكه وصناعتها إرتبطت بديوان الإنشاء حيث إختص هذا الديوان بوضع الألقاب الى جانب تصميم العمله حيث كان لكل خليفه فاطمى ألقابه وطرزه المتبعه على السكه المضروبه فى عهده .

ومما لاشك فيه أن للسكة الفاطمية أهمية كبرى فهى تمثل سلطة الخليفة وتعد وسيله من اهم وسائل الاعلام فى ذلك العصر كما تكشف لنا السكه عن العديد من الجوانب فى تلك الحقبه الزمنيه من الحكم الفاطمى فى مصر من الناحية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية .

---

(١) مايسه محمود : المسكوكات الفاطمية ، ص ١٤٣ .

(٢) عبد الرحمن فهمى : موسوعه النقود ، ص ٢٢٩ .

(٣) يوجد درهم للخليفه العزيز بالله فى متحف الفن الاسلامى رقم ١٧٧٠٤ - ودراهم الحاكم سجل ٥٠٤/ أرقام ٩٧ ، ١٠ .

(٦) صناعة الورق والكتابة :

ازدهرت صناعة الورق والكتابه فى القاهرة المعزيه الى حد كبير وكانت هناك العديد من الأسباب وراء ذلك وفى مقدمتها تشجيع وحب الخلفاء الفاطميين [١] للعلم والإطلاع .

وحظى الوراقون بإهتمام بالغ من الخلفاء والوزراء الذين حرصوا على اقتناء المكتبات فى قصورهم كما كان ناسخ الكتب والمخطوطات يقوم بانجاز ذلك فى أسرع وقت وإخراجها فى أحسن صوره من أجل الاستفادة المعنوية والمادية حيث كان الناسخ يحصل على مكافات كبيرة عند إتمام عمله . ويذكر ابن خلكان ان الخليفه العزيز بالله أمر أن يجرى الارزاق فى كل شهر على الوراقين والمجلدين العاملين بالمكتبه نحو ألف دينار [٢] .

ولاشك أن تقدم الثقافة كان له الأثر فى إنتشار محال الوراقه فى القاهرة وتقدم هذه الصنعه كذلك صناعة التجليد الذى كان ضروريا لحفظ الكتب من التلف .

وفى سنه ٣٩٥ هـ / ١٠٠٦م ،تم إنشاء دار الحكمة التى إشتملت على مكتبة عامرة بها عدد كبير من النساخ والوراقين ، وبطبيعة الحال كان وجود دار الحكمه حافزاً قوياً لصناعة الورق والوراقين حيث كان يؤتى لهم بالكتب لينقلوا منها عددا من النسخ لتزود بها المكتبة فى دار الحكمة أو كما يقال لها فى العصر الفاطمى دار العلم ، وكان هذا مرحلة أخرى فى تطور وازدهار الثقافة التى تقوم عليها صناعة الورق وحرفه الوراقين ، ومن الجدير بالذكر أنه فى عهد الخليفه المعز لدين الله ظهر اختراع القلم الأبنوس أداة للكتابة [٣] فهو يكتب بدون الاستمداد من دواه فيكون مداده من داخله ، وهذا سبق فاطمى مغربى بلا شك نفذه أمهر صناع البلاط الفاطمى .

---

(١) كان الخليفة المعز يهوى الاطلاع ويقضى معظم وقته فى مكتبة قصره وعن ذلك يقول المعزل لدين الله " والله ما لذذت بشيء تلذذنى بالعلم والحكمة " القاضى النعمان – المجالس والماسيرات – جـ ٢ – ورقه ٥٩٩ – مخطوط بدار الكتب .

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان – جـ – ص ٣٢٠ .

(٣) القاضى النعمان : المجالس والمسايرات – جـ ٢ ، ص ٣٢١ .

وعن هذا القلم يقول المعز " فيكو آلة عجيبة لم نعلم انا سبقتنا اليها ، دليلا على حكمة بالغه لمن تأملها وعرف وجه المعنى منها" (١).

وبالفعل هذا تقدم ملحوظ ودليل على ابتكار الصانع المغربى الذى صنع هذا النوع من أقلام الحبر الأبنوس والتى نسبت الى الخليفة المعز كعادة الحكام فى ذلك الوقت ولم نستدل على اسم الصانع ، ودليل اخر على تشجيع الخلفاء الفواطم وحبهم للعلم اهتمامهم بالأدوات المستخدمة فى الكتابه خاصه الدواه فكان لها مكانه رفيعه فى العصر الفاطمى اذ كانت من شارات الملك فكانت من بين شارات الخليفه مثل تاجه الذى يضعه على رأسه وقضيب الملك الذى يكون فى يده فكان عبارة عن دواة ثمينه وعنها يذكر القلقشندى بقولـــه"وتعتبر أعدوبه من أعاجيب الزمن " (٢) .

كما أن الدواه فى العصر الفاطمى كانت رمزا الى كبار موظيفها وبذلك كانت الدواه ذات مكانه رفيعه كرمز للثقافة فى العصر الفاطمى .

وفى الحقيقة أن الوراقه ونسخ الكتب من أفضل أنواع الصنائع ويذكر السبكى أن على الوراق والناسخ أن يلازم طالب العلم .

وهناك من كان من المغاربه المشتغلين بالوراقه وفى نفس الوقت من الأدباء ومنهم "على بن الحسن وأخيه أبى القاسم بن الحسن " وكان صاحب شهرة فى الخط مثل أخيه يقرض الشعر وصنعه الوراقه (٣) .

كما اشتهر فى هذا المجال محمد بن على بن محمد أبو سهل وقام بنسخ العديد من الكتب فى اللغة والنحو وغيرهما وعرف بخطه الجيد ، وكان هؤلاء الوارقين لاينسخوا شيئا من الكتب المضله مثل أهل البدع والأهواء ولايكتبون الكتب التى لاينتفع بها ، وكان الوراق ينسخ كل خمسين ورقه بدينا (٤) .

---

(١) المصدر السابق . نفس الصفحة .

(٢) القلقشندى : صبح ، جـ ٣ ، ص ٣٠١ .

(٣) المصباح المنير : جـ ٦ ، ص ١٩٥ .

(٤) ابن خلكان : وفيات ، جـ ١ - ص ٣٤٠ .

ومن عوامل ازدهار الوراقه تخصيص مكتبه فى كل جامع كبير مثل الجامع الأزهر وجامع الحاكم وغيرهما لأن هذه المكتبات تحتاج الى العديد من الكتب التى كان النساخون يقومون بنسخها .

ولم يقتصر عمل الوراقين على نسخ الكتب بل تجليدها أيضا وكذلك صنع أدوات الكتابة كالمحابر والأقلام مستخدمين مادة النحاس والحديد فى صنع الدوى المختلفة ، كذلك كان يتم صنعها من الأبنوس المحلى بالذهب [١] . ويصف ابن الحاج حركة الصناع بمحال الوراقه وهم يصنعون الورق ويحذرهم من القيام بغش الورق عند صناعته وخلطه بالنوع الخفيف لأن ذلك يجعل الورق لايتحمل الكشط عند إزالة الكتابة [٢] .

(٧) صناعة الخزف :

يعتبر العصر الفاطمى هو العصر الذهبى للصناعات ومن بين هذه الصناعات صناعة الخزف ، ومن المعروف أن صناعة الخزف كانت بمصر منذ زمن بعيد قبل مجىء الفاطميين لمصر ، ولكن ما اضافته الصناعة الفاطمية على يد صناعها المغاربه فى صناعة الخزف فاق ما سبقه فى عدة نواحى .

---

(١) المقريزى : الخطط : جـ ٢ : ص ١٢٧ .

ابن خلكان : وفيات : حـ ١، ص ٣٤٥ .

(٢) يشرح صاحب عمدة الكتاب طرق ازاله الكتابه حيث كان يعمد الناسخ الى اخذ كمية من البورن " الاسفيداج " وكمية مماثله من الصمغ العربى وما يعادلها من الكبريت ويدق الجميع ويسحق المخلوط وعند الحاجة اليه يصب عليه مقدار من الماء ويكتب به على الحروف او على الكتابه فانها تزول-مخطوط بدار الكتب لمؤلف مجهول رقم ٣٦ .

منها دقة الصنع وجودة المنتج من الخزف خاصه ذى البريق المعدنى فقد عشق الفاطميون الفنون وشجعوا الصناع على الابتكار خاصه لأدوات الترف والنعيم فازدهرت صناعة الخزف فى القاهرة المعزيه وجلب لذلك أمهر الصناع من المغاربه ومن هؤلاء الذين اشتهروا فى تلك الصناعة " مسلم بن الدهان " فكان له مصنعه الخاص وصبيانه وتلاميذه ليتعلموا منه أصول الصنعه [١] . أيضا " على البيطار" الخزاف حيث ينسب له صناعه الطبق ذى البريق المعدنى للقائد " غبن " قائد الخليفه الحاكم وهو محفوظ فى متحف الفن الاسلامى.

وتمدنا توقيعات الصناع على قطع الخزف على أسماء العديد منهم مثل " الغيبى – غزال – أبى المعز وغيرهم " .

ولقد كثر استخدام الخزف فى العصر الفاطمى فقد كانت الأطباق المصنوعه من الخزف تستخدم بكثرة على أسمطه الفاطميين وكان هناك المقاس الكبير والمتوسط وكان من رسوم الدولة الفاطمية توزيع الحلوى فى الجامات المصنوعة من الخزف .

ومن الأوانى المصنوعه من الخزف الزبادى والصحون وغيرها من الفخار أو من الخزف ذى البريق المعدنى ، وكثر استخدام الخزف فى اسواق القاهرة حيث كان التجار والبقالون يصنعون فيها ما يبيعونه بدلا من الورق فى كثير من الأحيان [٢] .

وذلك دليل على إنتشار صناعة الخزف ، كذلك استخدمت أختام خزفية لصنع وزخرفه الكعك والحلوى الخاصه بالفاطميين والتى نقلوها الى مجتمع القاهرة .

---

(١) بحث منشور – مجلة المقتطف – ترجمة عبد الرحمن زكى ، ص ٥٧١ .

(٢) ناصر خسرو – سفر نامه – ص ٧١ .

وكانت القاهرة من أهم مراكز صناعة الفخار والخزف فى العصر الفاطمى وتدلنا المجموعات الموجودة فى متحف الفن الاسلامى ، عن قدور وصحون وزبادى وغيرها من الأوانى الخزفية ، على تقدم هذه الصناعة وإبداع الصانع المغربى لها من حيث الشكل والمضمون ، فمن ناحية الشكل فأخذ تطوراً جديداً عن باقى العصور من حيث الرسومات والأشكال خاصة الهندسية والآدمية وهو لم يكن قبل قدوم الفاطميين لمصر .

أما من حيث المضمون فان دقة الصنع المغربى [١] كانت فى خفه وزن الأوانى الخزفيه ومن الكتابات التى تدل على ذلك حيث يضعها الصانع المغربى عند إتمام عمله "من خف عف " وغيرها من الكتابات التى تدل على جودة الصنع [٢] .

صناعة الزجاج والبللور :

تشير المصادر الى أن صناعة الزجاج فى العصر الفاطمى قد تقدمت وتطورت تطوراً ملحوظاً ، وكان من ابرز ما صنع فى ذلك العصر هو أنواع الزجاج المطلى بالميناء وقد اشتهرت القاهرة بصناعته ، كذلك صنع الزجاج ذى البريق المعدنى الذى أنتجه الصناع المغاربه خاصه ذلك النوع الذى صنعه الزجاجون فى القاهرة وهو نوع من الزجاج الأحمر ذى البريق المعدنى وأيضا الأبيض [٣] السميك وقد وجد فى المتحف القبطى بالقاهرة مجموعة من الأوانى المصنوعة من الزجاج الأبيض السميك الذى يرجع صنعه الى العصر الفاطمى .

وفى الحقيقة أن حياة الترف التى عاشها الخلفاء الفاطميون ومن عاش فى حكمهم كانت من العوامل الهامه فى إنتعاش العديد من الصناعات ومنها الزجاج والبللور ويدلنا على ذلك وجود خزانه البللور داخل القصر الفاطمى [٤] .

---

(١) ديماند : الفنون الاسلامية ، ص ٢٨ .

(٢) سيد طه – الحرف والصناعات ، ص ٩٦ .

(٣) ابن دقماق: الإنتصار ، جـ ٤ ، ص ٨١ .

(٤) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ص ١٢٧-١٢٨ .

ولقد تنوعت صناعة الزجاج وتعددت فى ذلك العصر بالقدر الذى كان سببا فى إنخفاض ثمنه لإنتاج العديد من الأدوات والتحف البللورية فى بعض الأحيان ولكن فى أحيان أخرى نجد ثمنها لايقدر بثمن ويكون ذلك وفقا للمنتج من حيث الجودة وجمال الصنع ، كذلك كان يصنع من البللور عصا الكحل الخاص بتزيين المرأة ، وغيرها من المصنوعات الزجاجية .

ومن الزجاجين المعروفين فى بداية العصر الفاطمى من المغاربه أبو جعفر الوزير أبو الفضل [١] حيث كان حاذقا فى صناعة الزجاج وكانت صناعة الزجاج تضم أيضا صناعة القناديل [٢] ، والمصابيح وهى من الصناعات التى لها رواج كبير بصفه عامه فى العصر الفاطمى بصفه خاصه ، فى المواسم والأعياد والمواكب السلطانيه التى تتطلب الانارة والتزيين بالقناديل ، حرص الفاطميون على تزيين الجوامع والمساجد بالكثير من هذه القناديل، وكان للصناع المغاربه ذوقهم المتميز فى روائع مبتكراتهم وزخرفتهم على الزجاج والبللور والتى كانت قصور الخلفاء والأعيان تضم الاف من القطع الزجاجية المصنوعه بأيدى أمهر الصناع المغاربة .

صناعة التحف المعدنية :

أ - المصنوعه من النحاس والبرونز :

عندما إتسع نشاط دار الصناعة الفاطمية لم يقتصر عملها على مطالب الجيش والاسطول الحربى ، بل تنوعت المنتجات والمصنوعات لتلبيه احتياجات السوق فضلا عن متطلبات القصور الفاطمية ، وكان من بين هذه الصناعات صناعة التحف المعدنية نظرا لطبيعة الفاطميين من حب الترف والثراء .

---

(١) المسبحى : تاريخ مصر ، ص ٢١٧ .

(٢) ناصر خسرو : سفر نامه ، ص ٥٩ .

يقول المقريزى " أن للسيدة رشيدة ابنة المعز تملك نحو مائه قطرميذ " برطمان زجاج مملوءة بالكافور " ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٢٨ .

فكان لصنع التحف بأنواعها رواجاً كبيراً فى ذلك الوقت ـ ورغم عدم توافر المادة الخام من النحاس اللازم لهذه الصناعة الذى لايتوافر الا فى بخارى واصفهان ، ولطبيعة هذه الصناعة كانت تتطلب وجود مسابك للنحاس والبرونز وهذا ما كان قائما بالقاهرة الفاطمية وكان موضع هذه المسابك عند الخارج من باب الفتوح وكانت هذه المسابك للحديد والنحاس وغيرها بدورها تتطلب معرفة فن تسقيه هذه المعادن .

وممن إشتهر فى هذه الصنعه من المغاربه اسم تردد كثيرا فى أوراق الجنيزة هو "ابراهيم بن بيجو من المهدية بتونس " (١) ، وكما هو معروف أن هناك نوعان من النحاس ، النحاس الاصفر وكان يجلب من بخارى والنحاس والأحمر وكان من اصفهان ، وقد برع الصانع المغربى كعادته فى صنع أفخر أنواع التحف التى ذخرت بها القصور الفاطمية ، وعن هذه الصناعة ذكر ناصر خسرو عندما زار القاهرة زمن الخليفه المستنصر " وقدحدث مرة ان وجدت هناك امراة تملك خمسه الاف من هذه الأوانى وكانت تؤجر الواحدة منها بدرهم واحد فى الشهر " (٢) .

وتدل هذه الروايه على أن الاوانى المصنوعه من النحاس كانت تنتج للعديد من الاغراض وبكميات وفيرة . وكان فناتو العصر الفاطمى يصنعون من النحاس والبرونز تحفا على اشكال مختلفه على هيئة طيور .

---

(١) تحكى وثائق الجنيزة عن هذا الصانع أنه فى فترة ما ترك القاهرة أو مصر وسافر الى الهند حيث يمتلك مصنعا للنحاس الأصفر هناك ولكن بعد وفاة إبنه الوحيد عاد مرة أخرى الى القاهرة ليزوج إبنته الوحيدة الى أحد ابناء عائلته المغربية فى مصر جوائين - دراسات فى التاريخ الاسلامى - ص ١٨٤ .

(٢) ناصر خسرو ، سفر نامه . ص ٦٠ ، زكى محمد حسن ، كنوز الفاطميين ، ص ١٤٠ .

وتشير المصادر إلى أن القصر الفاطمى قد حفل بالعديد من التماثيل والمباخر المصنوعة من النحاس ذات الطابع الفاطمى المغربى والتى تزين قاعات القصر ، ومن الجدير بالذكر وجود تمثال لطائر العقاب مصنوع من البرونز ويرجع صنعه للعصر الفاطمى وهو موجود الآن فى إيطاليا وبالتحديد فوق إحدى أروقه المقابر بمدينة بيزا [١] .

ومن أسماء الصناع المغاربه الذى نجد أسمائهم محفورة على صناعتهم نذكر منهم ، سعيد بن على وعبد الله المثال والذى ورد إسمه ضمن توقيع محفور على تمثال لأسد مصنوع من البرونز وذلك بتاريخ سنه ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م ، وهو محفوظ فى متحف كسل [٢] ، ولقد ازداد الطلب بكثرة لصنع العديد من التحف والتماثيل والمباخر وغيرها من التحف المعدنية فى العصر الفاطمى [٣] . التى يدخل فى صنعها معدن النحاس والبرونز الى جانب باقى الصناعات التى كان يدخل فى صنعها هذان المعدنان [٤] .

ب - **التحف المعدنية المصنوعه من :**

الذهب والفضه :

لم يقتصر استخدام الذهب فى صناعه الحلى الخاص بالنساء فى العصر الفاطمى وإنما كان يصنع منه العديد من التحف والأدوات المرصعه بالجوهر النفيس من الزمرد والياقوت وغيرهما .

---

(١) سيد طه : الحرف والصناعات - ص ١٦١ .

(٢) Wiet : Reprtoire, Tome, 6,no,2139. p.74

(٣) المقدسى ، أحسن التقاسيم - ص ٢١٢ .

(٤) Leclerc: Histoire de la medecine, Arabi, p.511.

ولكثرة استخدامات الصناعات الذهبية فى العصر الفاطمى وتأكيدا لأهميته عندهم فى ذلك الوقت ما كان يوجد داخل القصر من قاعات عرفت بقاعة الذهب داخل القصر الشرقى وقصر الذهب فى عهد الخليفه العزيز بالله ، فقد استخدم الصناع كميات كبيرة من الذهب لصناعة التحف الثمينه وأيضا الفضة التى وضعوها فى مقدمة قاعات القصور [١] الفاطمية وقصور أمرائهم ، ومن هذه التحف ما صنع على هيئة طاووس من الذهب والمرصع بالجوهر وعيناه من الياقوت الأحمر .

ولقد افاض المؤرخون فى وصف التحف التى تزين القصور الفاطمية المصنوعه من الذهب والفضة والتى عمرت بها قصورهم والتى يستخدمونها فى مواكبهم [٢] .

ولقد نشطت حوانيت الصاغه فى القاهرة بعد مجىء الفاطميين وتأسيسها ، ولاغرو فى ذلك فقد ذكرت المصادر التاريخية أن الفاطميين جاءوا الى مصر ومعهم الأحمال المحمله بالذهب ، هذا فضلا عن البحث والتنقيب داخل مصر عن الذهب والكنوز فى المناجم ، وقد ذكر ناصر خسرو[٣] أنه كان للخليفه خادم يسمى عمدة الدولة وكان عظيم المال والجاه ومن اختصاصه البحث فى تلال مصر عن الكنوز والذهب وكان يكلف لهذا رجال من المغاربه للبحث فى التلال خاصه فى وادى العلاقى عن الذهب والأحجار الكريمة [٤] .

وفى الحقيقة أن فنانى وصانعى تلك التحف قد استطاعوا بكل المقاييس أن يقدموا أروع وأبدع ما يمكن أن يقدم من التحف المصنوعة من المعدن سواء النحاسية أو البرونزيه أو الذهبية منها وهذا دليل واضح على ما كانت تنعم به البلاد من رخاء وتقدم فى ذلك العصر.

---

(١) ابن دقماق : الانتصار ، جـ ٤ ، ص ٨٣ .

(٢) آدم متز : الحضارة الاسلامية ، جـ ٢ ، ص ١٨٢ .

(٣) ناصر خسرو - سفر نامه ، ص ٦٤ .

(٤) يضم المتحف الاسلامى بالقاهرة مجموعة من خواتم الذهب المزخرفه بزخارف نباتيه أو حيوانيه وعليها كتابات كوفيه توضح روعة وجمال الصنع وما توصل اليه الصانع المغربى فى العصر الفاطمى رقم ١٣٨٧٢ .

المصنوعات الخشبية والحفر على الخشب :

كانت عمارة المساجد والقصور وتزيينها بالمصنوعات الخشبية [١] أهم ما يميز هذه الصناعة فى العصر الفاطمى . فكان الصناع المغاربه يقومون بعمل المقصورات والمنابر والمحاريب ومثال ذلك ما صنع من الخشب المخروط والمتقن الصنع وهو منبر الجامع الآزهر الذى كان تحفة فنية نادرة . وفى الحقيقة أن المادة الخام اللازمة للصناعات الخشبية لم تكن متوفرة فى البلاد بالدرجة المطلوبة خاصه من ناحية الجودة فكانت تجلب من بلاد الروم والشام والمدن الإيطالية ، وأيضا هناك ما صنع من الأخشاب المحلية [٢] . والتى تصنع منها الدكك والأسرة والمقاعد وغيرها ، أما الأخشاب اللازمة لصنع السقوف والأبواب والاعمدة والمنابر فكانت تجلب من الخارج .

والجدير بالملاحظة ذلك التطور والإبتكار الذى قام به الصانع فى العصر الفاطمى فقد تم التوصل لاستخدام بعض الدهانات ذات التركيبه الكيميائيه فى طلاء الأخشاب المصنوعه لمنع إحتراقها وتعرضها للتلف [٣] .

وعن صناعة الأبواب الخشبية فى العصر الفاطمى كانت هناك مرحلة جديدة وإبداع حيث استعملت كسوة وتطعيم للأبواب الخشبية بالنحاس ومنها ما كان لباب جامع الصالح طلائع بن رزيك حيث كان مكوناً من مصراعين صفح الوجه بالنحاس المزخرف أما الظهر فكان من الخشب المحفور ذو زخارف جميله على الطراز الفاطمى . ويحتفظ متحف الفن الاسلامى بهذين المصراعين وهو من أقدم الأبواب المصفحه بالنحاس فى القاهرة المعزيه [٤].

---

(١) كانت الاخشاب خاصه خشب الساج من الصادرات التى ترد من الهند الى مصر فى العصر الفاطمى ، المسعودى : مروج الذهب ، جـ ٢ ، ص ٩ .

(٢) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٦٥ .

(٣) سعيد عاشور ، المدينة الاسلامية ، ص ١٤٠ .

(٤) يضم متحف الفن الاسلامى بالقاهرة مجموعة من الأمشاط الخشبية عليها زخارف نباتيه ترجع صناعتها الى العصر الفاطمى .

والى جانب هذه المصنوعات هناك العديد من المصنوعات الخشبية التى قام بصنعها الصناع المغاربه ، كأدوات التسلية ولعب الأطفال على شكل طائر أو حصان [١] ، أيضا هناك إضافة فاطمية مغربية جديدة على صناعة الأخشاب فى القاهرة المعزيه ، حيث إنتشر واستخدم العاج فى تطعيم الخشب وتجلى اهتمام الفاطميين فى استخدام العاج " أنياب الفيل " التى كانت تجلب من الهند والحبشة .

فكان يطعم قطع الأثاث والألواح الخشبية [٢]. وفى الحقيقة كان هذا بالجديد أو بالاثر المغربى على صناعة الأخشاب حيث لم يرد فى المصادر وجود التطعيم بالعاج فى المصنوعات الخشبية فى فترات ما قبل الحكم الفاطمى بمصر ،ومما يؤكد صحة ما نقول وجود صندوق فى احدى القرى القريبة من بلنسية الاندلسية والمصنوع من الخشب المطعم بالعاج لأمير المؤمنين المعز لدين الله . ومكتوب عليه بالخط الكوفى : " بسم الله الرحمن الرحيم : نصر من الله وفتح قريب لعبد الله ووليه معز ابى تميم الامام المعزل لدين الله ... ما أمر بعمله بالمنصورية " [٣] .

فهذا دليل على أن هذه الصناعة قائمة فى بلاد المغرب وجاء بها الى مصر الصناع المغاربه حيث كان تاريخ صنع هذا الصندوق قبل الفتح الفاطمى لمصر .

وتبهرنا براعة الفنان والصانع المغربى عندما عثر على لوحات عاجية كانت أجزاء من صناديق خشبية مطعمه بالعاج [٤] توضح مدى الرقى وبراعة الصنع .

---

(١) زكى محمد حسن ، الكنوز الفاطمية ، ص ١٣٦ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٣) محمد عبد العزيز مرزوق ، الفنون الزخرفية ، ص ١٨٢ .

(٤) توجد هذه اللوحات وعددها ٨ لوحات منها ، ٦ لوحات فى متحف برجيلو بفلورنسا واثنان فى متحف اللوفر فى فرنسا - ديماند - الفنون الاسلامية - ص ١٣٢ .

صناعة البناء :

عند دخول الفاطميين مصر بقيادة جوهر بدأت على الفور حركة البناء وتجلت فى تأسيس القاهرة المعزيه وبناء الجامع الأزهر والقصر الشرقى الكبير والغربى الصغير وكل هذا تم بمعرفة البنائيين وغيرهم من المهندسين والمشاركين فى صناعة البناء ، وما أن اصبحت القاهرة عامرة بخليفة البلاد ورجال دولته من المغاربه حتى توالت وازدادت حركة البناء ، ومن ابدى أن يشيد ويبنى فى الدولة الفاطمية غير أمهر صناعها من المغاربه ، ولقد اهتم الخلفاء الفاطميون ببناء القصور وتسييدها وعن ذلك يذكر المقريزى " وقد عاينت فيها أيوانا يقولون أنه بنى على قدر ايوان كسرى الذى بالمدائن مكان يجلس فيه خلفاؤهم ولهم على الخليج الذى بين الفسطاط والقاهرة مبان عظيمه جليلة الآثار " [١] ومما يميز صناعة البناء فى ذلك العصر عدة أمور : منها أن التخطيط كان يسبق البناء حيث يقوم بذلك المهندسون حتى يتم البناء على دراية من غير خلل ، أيضا عند حفر الأساس كانوا يقومون بذلك الى أعمق قدر ممكن ليتأكدوا من عدم نداوة الأرض وخلوها الماء تماما [٢] .

كما برعوا فى عمل السراديب [٣] والممرات تحت الأرض حيث كانت تصل القصر الشرقى بالقصر الغربى عبر هذه الممرات تحت الأرض .

وكان الفاطميون يزينوا جدران قصورهم بالزخارف والرسومات وكان تعيين المصورين والمتمكنين من فن الزخرفة على جدران القصور يعد من العمليات المتممه للبناء داخل القصور الفاطمية لذلك خصص أمهر الفنانين والمصورين المغاربه وغيرهم للقيام بهذه الأعمال ومنهم الفنان والمصور المغربى الذى يسمى بـ " القصير " .

---

(١) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٨٢ .

(٢) أبو المحاسن ، النجوم ، جـ ٣ ص ٣٢٧ .

(٣) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ٤٩ .

وعنه يقول المقريزى نقلا عن القضاعى زمن المستنصر " وقد حضر بمجلسه المصوران القصير وابن عزيز ، فقال ابن عزيز انا أصور صورة اذا رآها الناظر ظن انها خارجة من الحائط ، فقال القصير : لكن أنا أصور صورة اذا رآها الناظر ظن انها داخله فى الحائط ، فقالوا هذا أعجب فأمرهما أن يصنعا ما وعدا " (١) .

أيضا من المصورين المغاربه الذى أبدعوا فى صنعهم كان " الكتامى "(٢) المصور حيث ينسب له صورة ليوسف عليه السلام وهو فى الجب ورسم الجب كله باللون الأسود ، اذ نظره الرائى ظن أن جسمه باد من دهان لون الجب ، وهذا دليل على براعة الفنان المغربى فى العصر الفاطمى ، وأما عن طبيعة البناء فى ذلك العصر فكان البناء يتم بإستخدام الأحجار والآجر والرخام (٣) ، فقد ولع الفاطميون باستخدام الرخام فى مبانيهم وحماماتهم (٤) ومن بين مهندسى الدولة الفاطمية التى كان له العديد من الأعمال والتى أدت الى تنشيط حركة البناء المهندس " ابن أبى يعيش الطرابلسى المهندس أيضا " الشيخ أبو جعفر بن حسندای " ولاشك أن ما تركوه من آثار وأبنية إنما يعكس مدى مهارة ومقدرة البنائين والمعماريين المغاربه وتقدمهم فى صناعة البناء وما بلغه صناع الجص والرخام وغيرهم من النقاشين والمصورين المغاربه فى زخرفه القصور الفاطمية وبنائها وغيرها من المنشآت التى يفخر بها التاريخ .

---

(١) المقريزى : خطط ، جـ ٢ ، ص ٤٣١ .

(٢) المسبحى : تاريخ مصر ، ص ٢٢٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٣٢ .

(٤) ابن دقماق : الانتصار ، جـ ٤ ، ص ١٠٤ .

الصناعات الغذائية :

تعددت الصناعات الغذائية فى مصر الفاطمية وسوف نختص بالصناعات الغذائية التى كانت بالقاهرة والتى كان للمغاربه بصفه خاصه وللفاطميين بصفه عامه دور فى صناعتها واستخدامها فى ذلك العصر . ونخص دراسة الصناعات القائمه على قصب السكر والقمح والغلال .

أ - **قصب السكر :**

لقد إحتلت الصناعة القائمة على قصب السكر مكانه كبيرة فى مجتمع القاهرة فى العصر الفاطمى ، وهى الصناعة القائمة على صنع المأكولات والحلوى التى يدخل فى تكريبها قصب السكر .

وفى الحقيقه الحديث عن المأكولات والحلوى الفاطمية يطول ولاريب اذ كانت هناك دار خاصه بناها الخليفه العزيز بالله بالقرب من القصر الكبير [1] وهى دار الفُطرة التى إختصت بصنع جميع أنواع الحلوى الفاطمية والاسمطه التى توزع فى المواسم والأعياد ، وكان يحمل الى دار الفطره الدقيق والسكر والفستق والزبيب وغيرها من المستلزمات وكان عدد كبير من الصناع المغاربه يقومون بصنع هذه الحلوى فى دار الفطرة حيث تشتد ذروة العمل فى المواسم والاعياد خاصه فى المولد النبوى الشريف .. حيث عمل الفاطميون على تأكيد نسبهم للسيدة فاطمة الزهراء إبنه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، وكان الاحتفال بمولد النبى الكريم صلوات الله عليه من مظاهر تأكيد نسبهم الى آل البيت الكريم فلم يدعو شيئا من الحلوى الا وصنعوها فى هذه المناسبه ومن أشهرها والتى مازلت متبعه الصنع فى مصر عمل العلاليق على شكل الفارس الذى يركب حصانه والعرائس المصنوعه من السكر والتى كان يفضلها الأطفال ومايزالون ، وهذا من بين ما تتفرد ببه القاهرة المعزيه ومصر حتى الان .

---

(١) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٥٨.

وعن الحلوى المصنوعه من قصب السكر فى العصر الفاطمى فهناك العديد منها الصابونيه والفسدقيه والزلابيه المشبكه والخبائص [١] والقطايف وغيرها مما يدخل فى صنعها اللوز والفسدق والبندق بكثرة .

ولقد شاهد ناصر خسرو عند زيارته للقاهرة شجرة مصنوعه من الحلوى أعدت للزينه وكانت كل غصونها وثمارها مصنوعه من السكر ومن المعروف فى ذلك الوقت أن هناك أنواع من السكر فمنه الأبيض وكان أقل منه درجة السكر الأحمر وكان السكر على شكل أقماع وتعددت أنواع السكر تبعا لدرجة تكريره ونقائه فكان منه السكر المكرر والسكر النبات.

وفى الحقيقة أن طبيعة تقاليد وعادات الفاطميين والمغاربة التى تأثر بها الشعب المصرى من حيث تعدد أنواع الحلوى والمصنوعات الغذائية القائمة على قصب السكر جعلتهم يستنفذون منه الكثير حيث يذكر القلقشندى أنه كان يحمل الى دار الفطرة بالقاهرة اربعمائه قنطار [٢] من السكر وكان من رسوم الدولة الفاطمية – توزيع الحلوى فى الأعياد على رجال الدولة من اصحاب العمائم والسيوف وغيرهم كل حسب درجته .

---

(١) مفردها خبيصه وهى الحلوى المصنوعه من الدقيق ودهن اللوز ، مخطوط بدار الكتب ، رقم ٢٠ صناعات .

(٢) القلقشندى : صبح ، جـ ٣ ، ص ٤٧٠ .

ب - صناعة الخبز :

لم تقتصر صناعة الخبز على ما هو مصنوع قبل قدوم الفاطميين الى مصر بل تعددت المأكولات المصنوعه من الغلال المطحونه ، ومنها ما شاع صناعته فى العصر الفاطمى من الكعك أو كما كان يطلق عليه فى ذلك العصر بالكعكا وهو نوع من الخبز الجاف يصنع من جريش الحنطة وكان هذا النوع يتزود به رجال الاسطول الفاطمى ، ولقد كان الكعك هذا كثير الاستخدام على موائد الخلفاء والمغاربه ، كذلك لم يقتصر عمل الأفران على صنع المخبوزات ليبيعها فى الأسواق بالقاهرة بل كانوا يصنعون لمن يرغب من الناس ما يعرف بخبز البيت فكانوا يقومون بخبز الدقيق لاصحابه مقابل أجر معين ، كما كان من المأكولات التى تصنع ما هو معروف بالخشكنانج [1] والذى يصنع من دقيق السميز بحيث يعجن مع السكر واللوز المقشور وقليلا من ماء الورد .

وخلاصه القول أن الخبازين المغاربه كانوا من بين أهم الصناع فى القاهرة الفاطمية لأهمية ما يصنعون وغيره من مستلزمات الحياة اليومية تلبية لاحتياج السكان فضلا عن مطالب القصور الفاطمية لأنواع المخبوزات وغيرها من المأكولات التى تقوم على وجود الغلال ولقد عمل الفاطميون على إنشاء الاهراء السلطانيه التى كانت تزود بالغلال من جميع انحاء البلاد وكان موقعها فى القاهرة خلف القصر الفاطمى ومن هذه الاهراء كانت توزع الحبوب على الطواحين لطحنها وتسلم بدورها الى الخبازين ليقدموا أفخر أنواع المخبوزات الفاطمية .

---

(١) الشيزرى : نهايه الرتبه - ص ٤١ .

(٢) حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٥٧٩ ، الاهراء ، بمعنى مخازن الغلال .

(٣) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٩٢ .

(٤) القلقشندى : صبح ، جـ ٣ ، ص ٤٧٩ .

دور المغاربة فى التجارة

أ - التجارة الداخلية :

ذخرت القاهرة المعزيه بسلع ومنتجات مختلفة تعرض فى أسواقها فى العصر الفاطمى ، فقد كان ذلك حديث العالم فى ذلك الوقت يقصده العديد من المشترين والتجار من جميع البلدان . وذلك لم يكن من فراغ ولم يتم بين يوم وليله ولكن كان ذلك على مراحل ووفقا لجهد مبذول من قبل الرواد المغاربه سواء التجار منهم أو ممن شارك فى تأسيس القاهرة من البداية فكان جهدا مشكورا نتج عنه هذه المدينة العامرة ، بأسواقها وخيراتها ، ففى البداية كان سوق القاهرة على نطاق ضيق وكان المشترون من سكانها هم القواد والعسكريين وكان تباع فيه المتطلبات البسيطة والتى قد لاتفى بالاحتياجات اذا ما قورنت بسوق الفسطاط فى بداية تأسيس القاهرة ، ولكن بعد التوسع واكتمال حركة البناء والتشييد ، بدأ النشاط الحقيقى لأسواق القاهرة ، ومن ثم منافسة سوق الفسطاط بل الى أبعد من ذلك لتنافس أسواق البلاد من حولها ، " فكان بالقاهرة وأسواقها مالم يكن يسمع عنه أحد" (١) .

وعن أسواق القاهرة يذكر ناصر خسرو الذى زار القاهرة فى القرن الرابع الهجرى " أن الفاطميين بنوا فى القاهرة مالا يقل عن عشرين الف متجر كان ايجار كل منها عشرة دنانير" (٢) . وكانت الأسواق فى ذلك العصر أهم ما يميزها أنها تقع بالقرب من المسجد الجامع وهذه من عادات المدينة (٣) الاسلامية فكانت الأسواق تحيط بالجامع الآزهر حتى اذا تم الناس صلاتهم فيشترون ما يحتاجون دون مشقه ، وتيسيرا للانتقال وجدت على نواحى هذه الأسواق الحمر المسرجه عليها براذع مزينه لتكون فى طلب من يريد الركوب (٤) ،

---

(١) المقريزى : الخطط ، جـ ٣ ، ص ١٧٤ .

(٢) ناصر خسرو : سفرنامه ، ص ٤٨.

(٣) المقريزى : الخطط ، جـ ٣ ، ص ١٧٥ .

(٤) محمد عبد الستار عثمان : المدينة الاسلامية ، ص ٨١ .

وهذه الوسائل تتفق وحارات المدينة التى كانت شوارعها فى معظمها عبارة عن شوارع ضيقة أو أزقه ، ومن معالم أسواق القاهرة الفاطمية أن كل سوق كان ينفرد بالاتجار فى نوع محدد من السلع فكان هناك سوق للشماعيين والسيوفيين والمغربليين والنحاسين والشعرانيين أو السروجيين وسوق الحريريين والوراقين وسوف الزجاجيين والقشاشين وسوق الفاكهة والطيور وسوق الحدادين وسوق أمير الجيوش [١] وغيرها الكثير من الأسواق .

ولقد تركزت أهمية أسواق القاهرة عقب حريق الفسطاط [٢] فبذلك اصبحت القاهرة واسواقها المركز الرئيسى للتجارة وعن أسواق القاهرة ذكر المقريزى " وتحتوى مصر والقاهرة ... القياسر المعمورة بأصناف الأنواع والأسواق مملوءة بما تشتهى الأنفس والخانات المشحونه بالواردين والفنادق الكاظة بالسكان [٣] .

ومن أنواع الأسواق ما كان يسمى بأسماء الحرف مثل درب الديباج وسويقه دار النحاس وقيساريه الحلى وقيساريه الصبانه ومساطب برسم الخياطين وسوق الصباغين والزياتين وغيرهم [٤] .

---

(١) يقع سوق أمير الجيوش بين ظهر المنحر وباب حارة برجوان وفى عصر المقريزى أصبح مكانه عند باب حارة برجوان بالقرب من الجامع الحاكمى، المقريزى- خطط - جـ ٢ - ص ٣٦٣ .

(٢) لقد أمر الخليفه بحرق الفسطاط خوفا من الزحف الصليبى الى القاهرة ، ولقد استمر الحريق فترة كبيرة اذ يقال انها استمرت أربعة وخمسين يوما كاملاً ، المقريزى: المصدر السابق ، ص ٣٦٥.

(٣) نفس المصدر والجزء - ص ٣٦١ .

(٤) ابن دقماق : الانتصار - جـ ، ص ١٤٢ .

وأشار المقريزى أن فى أسواق القاهرة عريف [١] لأرباب كل صنعه يتولى أمرهم فللصباغين مثلا عريف يتقدم عليهم ويكون شيخهم وله تلاميذه وصبيانه ويرجع اليه الصباغون فى حرفتهم . وحقيقة الامرأنه بالرغم من الدور الواضح للمغاربه فى التجارة فإن مصادرنا لم توضح ذلك بشكل دقيق ، كانت الأخبار متفرقات عابره عند ذكر الأسواق أو بعض الصناعات مثال ذكر اسم الصباغ المغربى الذى يمتلك مصبغه فى سوق القاهرة وهو " عروس بن يوسف " وما كان لعروس من دور كبير فى التجارة . وخاصه التجارة الخارجية.

وكانت أسواق القاهرة مسقوفه وغير مسقوفه فالأسواق المسقوفه تسمى بالقياسر ، وكانت أسواق القاهرة تضاء ليلا ونهارا بالمصابيح خاصه وأن الأسواق المسقوفه قد تحجب ضوء الشمس ، والدارس لأسواق القاهرة يستمتع بعرض المؤرخين لأسواقها ومتاجرها وكأنه يشم عبير العصور الفاطمية من بين السطور ، ليشعر بمدى الثراء والعظمه التى كانت عليها أسواق هذه الدولة .

ولقد كان لكل مدينة فى العصر الفاطمى ارطالها الخاصه التى تتعامل بها عند الوزن، فكان فى القاهرة يتعين على التجار أن يتخذوا الأرطال والأوزان من حديد وليست من الحجارة [٢] .

واذا كانت تلك أحوال سوق القاهرة من نشاط ورواج فذلك لايمنع من وجود فترات من الكساد التجارى داخل سوق القاهرة فكان سبب ذلك قد يجتمع فى انخفاض منسوب النيل والفتن الداخلية بين طوائف الجنْدُ أو حالات عدم الاستقرار فكان اذا غاض النيل تعطلت الزراعة التى هى عماد الحياة الاقتصادية خاصه فى العصر الفاطمى فلاغلال ولاحبـــــوب

---

(١) المصدر السابق نفس الجزء والصفحة .

يشير القلقشندى الى الحرفيين ويذكر أن هناك كان ما يمكن تسميته بنقابه الحرفيين والتى يرأسها شيخ هذه الصنعه - انظر صبح الأعشى - جـ ٣ - ص ٤٨٥ .

(٢) المقريزى : الخطط - جـ ٢ ، ص ٣٦٥ .

أبو المحاسن :النجوم ، جـ ٣ ، ص ٤٣٢ .

كانت وحدة الوزن فى مصر قبل العصر الفاطمى هو الرطل وهو " مائه واربعه واربعون درهماً" وأوقيته إثنى عشر درهماً ومنه يتفرع القنطار المصرى وهو مائه رطل . القلقشندى : صبح،جـ٣،ص٤٤٥.

فتضطرب لذلك اقتصاديات البلاد وما بها من أسواق فيعم الجوع والفقر ، وهناك عوامل سياسية تتدخل فى مجرى الأحوال الاقتصادية وذلك ما حدث بالفعل [١] بين القواد والجنود المغاربه وطوائف الجند الأخرى فى الدولة الفاطمية مثل الأتراك وفى تلك الفترة قد قاست القاهرة كثيرا من أعمال النهب التى أعقبت تلك الصراعات مما أثر على سوق القاهرة واقتصادها هذا بالاضافه الى سنين الشدة المستنصريه المعروفه حيث كادت تعصف بالناس من الجوع فعم الخراب فى الأسواق وتعطلت العديد منها مدة ٧ سنوات وكان نقصان النيل وإنعدام المخزون سببا فى المجاعة والفقر [٢] .

ولقد عانى من ذلك كل سكان القاهرة بجميع درجاتهم ، فنسمع عمن يتنازل عن منزله مقابل ربع مثقال من الدقيق وأخرى سيدة تبحث فى الأسواق لتبيع [٣] حلى تمتلكها مقابل حفنه من الغله .

وأمثال عديدة توضح مدى ما وصل اليه رجال القصر من قلة المؤن ، حتى سنه ٤٦٦هـ /١٠٧٣م ، وقد مرت تلك الشدة وبدأ النشاط يدب فى البلاد وفى أسواق القاهرة واقتصادها من جديد [٤] ، وان كان ما سبق فى عهد المستنصر قد حدث فى عهد الخليفه الظاهر ولكن ليس بمثل تلك الشدة وان أعقبها بعض فترات الكساد ولكنها لم تستمر طويلا ، فقد شهد الرحاله وشاهدى العيان من المؤرخين ما لأسواق القاهرة من تقدم وازدهار حيث زخرت بما يبهر الرائى .

---

(١) نجح الوزير اليازورى فى أن يسيطر على فتن الاحزاب والطوائف فى القاهرة .

Lanepoole, the story of- cairo, p.120.

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ٧٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٣٢ .

(٤) على يد الوزير بدر الجمالى أمير الجيوش وهو من اصل أرمنى .

فقد اقترن التدهور والمجاعه بالفتن الداخلية بين صفوف الجند .

المقريزى : اغاثه الامه ، ص ٧٤ .

ولقد كان للمحتسب دور هام في أسواق القاهرة ، خاصه وأن وظيفة المحتسب كانت رفيعة الشأن ويحظى المحتسب بتقدير الكل ، حيث يلقب " بالشيخ "[١] وكان مقر المحتسب في دار الحسبه بالقاهرة وكان يجلس بدكه الحسبه [٢] ، ومن المعروف أن للمحتسب مهام عديدة في أسواق القاهرة وكان له أعوان يراعى فيهم الأمانة والخبرة بأمور الصناعة والتجارة ليكونوا على دراية تامه بما يشرفون عليه ، وكان على المحتسب وأعوانه أن يراقبوا الأسواق وما يتم بها من عمليات [٣] للبيع والشراء ، والتأكد من سلامه المعروض وسلامه الكيل والميزان ، وبأمر التجار بالامانه عند البيع وينهاهم عن الغش [٤] ، وكان للمحتسب أن يقوم بتحديد وتعيين مكان كل صنعه على حدة وإبعاد صاحب الصنعه التى يستخدم فيها النار أو ما شابهه عن التجارات التي قد يتضرر أصحابها مثل تجارة العطارة والتوابل ، وأيضا تحديد مكان مخصص لكل صنعه يفيد في الإشراف ومراقبه الأسواق [٥] فكانت وحدة السوق هذه تحد من جشع التجار فالمشترى يمكنه أن يختار ما يحلو له من سلع فاذا مالم يحصل عليها من الأول سيجدها عند الذى يليه وبسعر أفضل وإن كانت وحدة السوق تجعل من المشترى لسلعتين أو ثلاثه أن يطوف بالسوق شرقا وغربا للحصول على ما يريد .

ولقد حافظ المحتسب خاصه المغاربه منهم فى العصر الفاطمى على انضباط السوق والتزام الماره بالحشمه والوقار مع عدم السماح للتعرض للنساء أو مضايقتهن [٦] أثناء وجودهن فى السوق [٧] .

---

(١) القلقشندى : صبح ، جـ ٤ ، ص ٣٨ .
سهام أبوز زيد – الحسبة فى مصر الاسلامية – ص ١٠٧ .

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٦٣ .

(٣) ابن الأخوة : معالم القريه فى أحكام الحسبه – ص ١٣ .

(٤) أحمد شلبى : السياسة والاقتصاد فى الفكر الاسلامى ، ص ١٨٢ .

(٥) المقريزى : خطط ، جـ ١ ، ص ٤٦٣ .

(٦) ابن الأخوة : معالم ، ص ١٣٦ .

(٧) جاستون فيت – القاهرة ، مدينة الفن والتجارة – ص ٦٣ .

وأيضاً كان ينهى الخياطين عن الغش وكذلك الصباغين عند غشهم للمواد الخاصه بالصباغة ففى بعض الأحيان يقومون بصباغة اللون الأحمر بالحناء بدلا من الفوه [١] فيخرج الصبغ حسنا حتى اذا اصابته الشمس تغير لونه ، فكان للمحتسب دور هام وبارز فى حركة التجاره وقد خول له الخليفه هذه السلطة والتى تجعله يسيطر على السوق والتجار والمترددين عليه .

وكان المحتسب أيضا بأمر أصحاب المتاجر وخاصه من تقوم تجارته على السلع الغذائية بنظافة المكان والمعروض وما يقدم من أطعمه مثل الجزارين وأصحاب متاجر بيع الحلوى حيث كانت توضع فى أوانى نحاسيه مغطاه دليلاً للنظافة ، كذلك يأمر أصحاب الطواحين بإزاله ما علق بها من شوائب [٢] وكان ما تقع عين المحتسب على أى من غش فى الكيل أو قيام التجار بأى نوع من أنواع التلاعب والاهمال فكان للمحتسب الحق فى تنفيذ العقوبات عليه فكان يعاقب إما بالجلد أو التعزير [٣] او الايقاف لمدة محددة ، ليكون عبره لمن تسول له نفسه بالغش والاهمال ، ليعم الأمن والحذر داخل أسواق القاهرة .

ومن أحوال التجار المغاربه داخل سوق القاهرة أنهم كانوا يتفقون على أسعار السلع التى يبيعونها وذلك لحمايه أنفسهم من خطر المنافسه اذا ما تباينت الأسعار بشكل كبير ،[٤]وكانت الدولة الفاطمية لاتتدخل فى تحديد الأسعار الا فى أسعار القمح والغلال وإن كانت قد تحدد الأسعار فى وقت الأزمات [٥] .

---

(١) سيد طه : الحرف والصناعات - ص ٤٠ .

(٢) ابن الأخوة : معالم ، ص ١٥٢ .

(٣) أحمد ابراهيم الشريف : المرجع السابق ، ص ٢٤٦ .

(٤) السبكى : المصدر السابق ، ص ٥٢ .

(٥) سيد طه - المرجع السابق ، ص ٤٠٦ .

ومن أحوال السوق التجاريه فى القاهرة فـى العصـر الفـاطمى أنـه مـن الصعـب عنـد الدراسة الفصل بين التجارة والصناعة حيث تشـير وثـائق الجنيزه الـى عقـود تمـت لشـركات لتصنيع وبيع السلع [١] فهى بذلك تضم التجارة والصناعة معا .

ومن الجدير بالذكر فـى هـذا الصـدد أن التـاجر المغربـى فـى العصـر الفـاطمى كـان مكسبه من المنتج الذى يبيعه أضعاف ما كان يكسبه الصانع لنفس المنتج حيث كـان التـاجر يعتمد على حاجة النـاس وإقبـالهم علـى السـلعة وفقـا للعـرض والطلـب خاصـة عنـد صعوبـه الحصول عليه فى وقت الأزمات فكان يمكن للتاجر أن يفـرض السـعر الـذى يريـده وان كـان ذلك شىء مرفوض .

وهكذا كانت أحوال السوق فى القـاهرة الفاطميـة حيث الحركـة والنشـاط وأن تخللهـا بعض الكساد ولكن سرعان ماتبدأ بالانتعاش فى عصر اختص بالترف الثراء .

العملة المتداولة فى سوق القاهرة :

يتعين علينا عند دراسة أسواق القاهرة ذكر لغة التعامل بها وهى الدنانير الفاطميـة أو العملة المتداولة .

فكـانت الدنـانير الفاطميـة والدراهـم والفلـوس [٢] هـى العملـة المتداولـة فـى العصـر الفاطمى ، حيث حرص الفاطميون منذ دخولهـم الـى مصـر علـى نشـر سـكتهم إذا أنهـا تمثـل سلطة الخلافه الفاطمية فى البلاد .

---

(١) جواتين : دراسات فى التاريخ الاسلامى - ص ١٨١ .

(٢) مفردها فلس : وهى العملات الصغيرة مثل الخراريب ، المقريزى : الخطط - جـ٢ - ص ٣٨٥.

ومن ناحية أخرى مظهراً من مظاهر المنافسه للخلافه العباسيه وكذلك وسيله من وسائل الترويج للمذهب الشيعى الفاطمى نظرا لأن كافة الناس يتداولونها فى معلامتهم التجارية ، لذلك حرص الفاطميون منذ بداية عهدهم على أن عيار الدينار الفاطمى المعزى قدره ٢٣ر٥ قيراط ، وهو أعلى عيار للدنانير لينافس عيار الدينار الراضى العباسى .

وكان الدينار يساوى ١٥ ١/٥ [١] درهما فى ذلك الوقت .

ومن الجدير بالملاحظة أن دنانير الخليفه المعز لم تختلف من حيث الشكل أو المضمون عن دنانيره التى ضربها ببلاد المغرب فهى تتألف مثلها من ثلاثه هوامش دائرية عليها كتابات كوفيه محصورة داخل ثلاث إطارات دائرية أخرى تتوسطها نقطة بارزة لضبط كتابات الهوامش التى تحمل عبارات التوحيد والرسالة المحمدية واعلان نسب الفاطميين الى آل البيت والمناداة بأحقية على وأبناءه من بعده بالخلافه ، ولقد اهتم الفاطميون بضرب العملات التذكارية من الدنانير أو أجزائها من أنصاف أو أرباع الدنانير خاصه فى المناسبات فكانت هناك ما تسمى بدنانير الغرة [٢] لتوزع أول العام الهجرى ويحتفظ متحف الفن الاسلامى بدينار بإسم الخليفه المعز لعام سنه ٣٦٠ هـ/ ٩٩٦م وربع دينار باسم الظاهر - سنه ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م [٤] .

---

(١) مايسه محمود : المسكوكات ، ص ٤٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٨ .

(٣) المقريزى : خطط ، جـ ٢ ، ص ٣٩٢ .

عبد الرحمن فهمى ، موسوعة النقود العربية ، ص ٤٥١ .

(٤) سجل رقم ٢١٩٤٠ - متحف الفن الاسلامى بالقاهرة .

أما عن الفلوس الفاطمية فيحتفظ متحف الفن الاسلامى بمثال نادر للفلس الفاطمى الذى يرجع الى عهد [١] المعز لدين الله .

حيث استخدمه الناس فى المعاملات التجارية البسيطة داخل سوق القاهرة ، وتشير دراسة السكه الفاطمية فى عهد الظاهر الى عدم وجود الفلوس أو العملات المساعده وظهر على دنانيره كلمة " عال وغايه " لتفيد الجودة والدقة فى الوزن وهذا يوضح ما كان من غش فى العيار بسبب بعض الاضطرابات الاقتصادية فى عهد الظاهر أو التلاعب فى وزن العيار لذلك لجأت الحكومة الفاطمية الى تشديد الرقابة على دور الضرب بالقاهرة وإثبات كلمة عال وغايه على الدنانير كما نجدها فى دنانير الخليفه المستنصر[٢] .

ولقد اهتم الخلفاء الفاطميون فى العصر الفاطمى الثانى بضرب النقود من الدنانير والدراهم ولكن كان الوزن والعيار أقل من بداية الحكم الفاطمى .

---

(١) محفوظ فى متحف الفن الاسلامى - سجل رقم ٦٧٢٤/٣ مسلسل ١٣٣ .

(٢) لقد حاول الصليبيون محاكاة الدنانير الفاطمية وإن جاء هذا التقليد ممسوخا عندما قلدوا الكتابه العربية وإسم المستنصر لعدم درايتهم باللغة العربية وقد كان هذا التقليد سابقا للوقت الذى هدد فيه الصليبيون ممتلكات الدولة الفاطمية فى الشام ، أحمد مختار العبادى: دراسات فى التاريخ العباسى والفاطمى - ص ٨٧ .

ب - التجارة الخارجية :

إنتعشت التجارة فى القاهرة فى العصر الفاطمى حيث يقيم الامراء والأعيان المغاربه ومشايخهم فكثر توافد التجار للقاهرة وكانت هناك عوامل عديدة ساعدت على ازدهار التجارة الخارجية فى القاهرة فى العصر الفاطمى منها موقع مصر الجغرافى المتميز الذى يتوسط العالم كما هو معروف ، وأيضا عوامل أخرى متمثله فى عناية الخلفاء الفاطميين بالتجارة الخارجية واهتمامهم بالأسطول التجارى لنقل البضائع والتجارات من القاهرة الى جميع البلدان فى الشرق والغرب فكانت توصيات الخليفه المعز لأمراءه وأعوانه المغاربه بسرعة إنشاء أسطول بحرى ضخم يستفاد منه فى التجارة الخارجية . وتنفيذا لذلك كان إنشاء مرسى ومقر الاسطول الفاطمى " بالمكس " أو كما عرف بحوض المكس بالنيل بالقاهرة التى كانت تطل على حوض المكس أو المقس [١] .

فقد كانت القاهرة ولاتزال بموقعها الممتاز وسهولة أتصالها موقعاً تجارياً هاماً وخاصه وأن مجرى النيل يعتبر مجرى صالح للملاحة معظم فصول السنه ليكون الطريق الرئيسى لنقل البضائع من القاهرة عن طريق المكس المطل على النيل فى ذلك العصر [٢] لتأخذ التجارات طريقها براً وبحراً للشرق أو للغرب .

كما أن هناك دور قام به المغاربه كان له الأثر الكبير فى ازدهار التجارة الخارجية فى القاهرة فعندما تم إنشاء دار الصناعة بالمقس كان متولى دار الصناعه مغربى وكان الاهتمام الخاص لبناء السفن اللازمة فى التجارة الخارجية [٣] .

---

(١) المقس فى الأصل هو قرية أم دنين وكان المكس مكان تجمع فيه المكوس نعرف بها - وكان يطلق على العاملين بالاسطول الفاطمى " المجاهدون فى سبيل الله " (الغزاة لأعداء الله) ويسمى الواحد منهم الاسطولى . عن ذلك انظر المقريزى : الخطط - جـ ١ ، ص ٢١٨.

(٢) المناوى : نهر النيل فى المكتبة العربية ، ص ١٩٢ .

(٣) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٩٥ .
ويذكر المقريزى ما يفيد بأن المعز لدين الله أنشأ فى دار صناعة المقس ستمائه مركب لاستخدامها فى التجارة الخارجية فكان الاهتمام ببناء السفن للتجارة الى جانب الاهتمام الاول لاستخدامها فى الجهاد فى سبيل الله .

وزيادة فى وصف ضخامه دار الصناعة اللازمة فى تنشيط التجارة الخارجية يذكر المقدسى " وكنت يوما أمشى على الساحل وأتعجب من كثرة المراكب السائرة ، فقال لى رجل منهم من أين أنت قلت من بيت المقدس ... أعلمك يا سيدى .. إن على هذا الساحل وما أقلع منه الى البلدان والقرى من المراكب ما لو ذهب الى بلدك لحملت أهلها والاتها وتجارتها حتى يقال كأنها هنا مدينة " [١] .

أنواع الصادرات :

إشتهرت القاهرة بالمنتجات الصناعية التى لها رواج فى التجارة الخارجية وكانت صناعة النسيج من اشهر البضائع التى لها اقبال كبير لدى جميع البلدان فى الشرق والغرب وأن كميات كبيرة من النسيج المصنع فى القاهرة ذو الاتقان والجودة والمتأثرة فى بعض الأحيان بالطابع المغربى خاصه فى المنسوجات الحريرية ، ويرجع ذلك الى تشجيع الخلفاء الفاطميين لهذه الصناعة وذلك بالاستفادة من المهارات المغربية لتحسين المنتج وبالتالى استغلال الفائض عن حاجة السوق المحلية فى التبادل التجارى [٢] . وأيضا كانت العنايه بدور الطراز [٣] بالقاهرة حيث خصص لصاحب الطراز وكان من المغاربه سفينه لتنقلاته بين دور الطراز فى جميع البلدان حتى يكون على دراية بأحدث ما توصلت اليه فنون النسيج طلباً فى رقى المنتج الفاطمى . وكان متولى الطراز من أرباب العمائم والسيوف [٤] وكان له حق الاشراف على جميع دور الطراز العامة والخاصة .

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ١٩٨ .

(٢) سيد طه : الحرف والصناعات ، ص

(٣) المناوى : الوزارة والوزراء ، ص ٢٢٣ .

(٤) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٢١٣ .

والى جانب تسويق المنسوجات من القاهرة هناك العديد من المنتجات منها المصنوعات الفنية الخشبية ذات النقش والحفر على الخشب أيضا المعادن مثل الشب والنطرون والزمرد بأنواعه خاصه النوع المسمى " بالمغربى " الذى كان يلاقى استحسانا لدى الروم على غيره من سائر الجوهر [١] .

وتؤكد وثائق الجنيزة أن مجموعات من الأقمشة الحريرية [٢] وأنواع مختلفة من الزجاج كانت تصل من القاهرة الى بلاد الهند فى العصر الفاطمى الى جانب المنتجات التى كانت تخرج من القاهرة للتجارة الخارجية والتى من الممكن أن تكون خاماتها من بلدان أخرى ولكنها تصنع بالقاهرة وتسوق على شكل منتج مصنع بالقاهرة [٣] بمعنى أنه اذا كانت القاهرة تصدر مثلا تحفا فنية مصنوعة من البلور فذلك بعد استيراد المواد الخام من بلدان يكثر فيها البللور مثل المغرب .

الطرق التجارية :

كانت هناك عدة طرق تجارية تستخدم فى نقل تجارة القاهرة وهى :

١ - موانىء البحر الأحمر التى تصل اليها تجارة الهند واليمن والحبشة ببضائعهم المختلفة من البهار والجلود والعطور وأنياب الفيل " العاج " فكان ميناء عيذاب من أهم موانىء البحر الأحمر فيصف المقريزى عيذاب بأنها من أعظم مراسى الدنيا [٤] ، وكانت التجارات التى تصل الى عيذاب تنتقل من القاهرة عن طريق النيل بحوض المقس ، فالفسطاط حتى مدينة قوص ثم تأخذ طريقها الى عيذاب براً ثم تحمـــــل

---

(١) المسعودى : مروج الذهب تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد - ط بيروت - جـ ٢ - ص٢٢.

(٢) جوانين : دراسات فى التاريخ الاسلامى ، ترجمة عطيه القوصى ، ص ١٠.

(٣) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ١٠٣ .

(٤) المقريزى - الخطط - جـ ١ ص ٢٠٢ .

المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ١٩٤ .

ناصر خسرو ، سفر نامه ، ص ٨٣ .

البضائع للابحار بها الى الهند او اليمن وتتم هذه العملية الخاصه بالنقل فى حوالى عشرة أيام وكان التجار المغاربه يفضلون هذا الطريق ، طريق عيذاب البحر الاحمر نظرا لقصره ووصول البضائع مسرعه من تجارة الشرق الاقصى[١] .

٢ - القاهرة - دمياط :

وكان هذا الطريق عبر نهر النيل من فرعه الشرقى الذى يعرف بفرع دمياط ومن ثم بعد أن تصل التجارة من القاهرة الى ميناء دمياط وتتجه البضائع الى السفن لتسوقه فى بلاد الروم والدول الاوربية .

٣ - طريق من القاهرة للاسكندرية عن طريق النيل عبر خليج الاسكندرية .

٤ - طريق برى من القاهرة الى الفرما ليصل الى القلزم ، وكانت البضائع والتجارة الواردة من الغرب الى الشرق تأتى الفرما حيث تحمل منها على ظهور الدواب الى القلزم على البحر الأحمر ثم يركبون البحر الى الهند والصين [٢] . وكانت الفرما تبعد عن القلزم بحوالى ٢٥ فرسخا [٣] . وفى أحيان أخرى يستخدم نفس الطريق للوصول الى موانىء الشام وأنطاكيه أو من الفرما الى القسطنطينية مباشرة .

٥ - طريق تجارى - القاهرة دمياط عن طريق النيل ثم تحمل التجارات لتتخذ طريقها فى البحر الابيض المتوسط الى القسطنطينية مباشرة .

٦ - طريق بحرى من المهدية فى تونس الى ميناء الاسكندرية وتحمل البضائع الى دمياط لتستكمل الطريق عبر البر للقاهرة والعكس صحيح حتى تستأنف الرحلة سيرها الى ميناء تنيس لتبحر الى موانىء الشام لتصل الى القسطنطينية [٤] .

---

(١) أحمد دراج ، عيذاب من الموانىء الافريقيه ، ص ٦٠ .

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢١٣ .

(٣) ٧٥ ميلاً = ٢٥ فرسخاً .

(٤) عفيفى محمود ابراهيم : أحوال بلاد المغرب ، ص ١٩٥ .

٧ - طريق بحرى اخر من ميناء الاسكندرية . الى بلاد المغرب وذلك دليل على أهمية ونشاط التجارة الخارجية فى القاهرة الفاطمية مع بلاد المغرب وذلك يرجع الى دور المغاربه فى القاهرة فى العصر الفاطمى حيث كان عدد كبير منهم مساهماً فى تنشيط التجارة الخارجية مع بلاد المغرب وايضا مع باقى الدول الاوربية وبرز من بينهم تاجر مغربى يدعى " عروس بن يوسف " مقيم بالقاهرة الفاطمية وهو مغربى الأصل من " المهدية بتونس " والى جانب التجارة كان فى الأصل صانع للاصبغه الخاصه بالمنسوجات وله شهرة فى التجارة الخارجية خاصه مع الدول المطلة على البحر الابيض المتوسط ذلك ما تؤكده وثائق الجنيزة [١].

٨ - طريق برى من القاهرة للشام فحلب ثم أنطاكيه حيث كان من الطرق التجارية الهامه بالنسبه للتجارة الخارجية اذا ما روعى موقع القاهرة ، فقد كانت البضائع تحمل لتخرج من القاهرة برا الى بلبيس فالفرما والعريش ثم الرمله فطبريه ومنها الى دمشق [٢] ثم تتجه البضائع الى حلب وانطاكيه و كان ذلك يستغرق مدة طويلة للوصول بالتجارة فقد كان هو الطريق البرى الأكثر استخداما فى العصر الفاطمى للتجارة الخارجية ولأهمية هذا الطريق اتخذه البيزنطيون عامل ضغط على التجاره مع المسلمين [٣] .

---

(١) جوانين : دراسات فى التاريخ الاسلامى : ترجمة عطيه القوصى ، ص ١٦ .
المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٢٤ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ٢٢٢ .

(٣) كانت عندما تسوء العلاقات بين الدولة الفاطمية والبيزنطية وكان البيزنطيون يحاولون الاستفادة من هذا الطريق البرى لصالح التجارة البيزنطية خاصه عندما عقد البيزنطيون معاهدة حلب سنه ٣٥٩هـ/ ٩٧٠م، فكان لبيزنطة الحق بموجب المعاهدة الحصول على ضريبه العشور عن كل تجارة تصل الى حلب ، الانطاكى : تاريخ رحلة بن سعيد الانطاكى، ص ١٣٤ .

وأيضا من أهم ما يميز طرق التجارة البرية فى ذلك الوقت أن طرق التجارة البحرية فى أغلب الأحوال لها مواعيد للابحار مرتبطة بحالة البحر نفسه .

وعن مواعيد الابحار بالسفن فى البحر يذكر المقريزى أن شهر " برمهات " [١] تجرى المراكب فى البحر الى ديار مصر من المغرب والروم " [٢] .

أهم الموانىء والمراكز التى تمر بها طرق تجارة القاهرة :

بعد عرض أهم الطرق التجارية للقاهرة لتعبر من خلالها لتصل الى الشرق والغرب كما سبق وأوضحنا ، نود أن نلقى الضوء على بعض الموانىء التى تعبر من خلالها تجارة القاهرة الخارجية .

١ - ميناء عيذاب :

وهو من أهم موانىء البحر الأحمر فى العصر الفاطمى فتصله بضائع مختلفه من تجارة الهند والصين فى الشرق الاقصى وتجارة اليمن والحبشة فكان يصل من الهند والصين البهار والجلود والعطور والأصباغ والألوان المستخدمة فى صباغة المنسوجات وغيرها من تجارة الشرق ، كما كان يصل من الحبشة الجلود وأنياب الفيل " العاج " .

وعن ميناء عيذاب يذكر المقريزى أنها من أعظم مراسى الدنيا [٣] .

وكانت التجارات التى تصل الى عيذاب تنتقل كما سبق وأوضحنا الى القاهرة عن طريق عيذاب فمدينة قوص[٤] ثم تحمل البضائع [٥] لتتجه عبر النيل الى ميناء أو حوض المكس بالقاهرة .

---

(١) برمهات : من الشهور القبطية ويعتبر هذا الشهر نهايه لفصل الشتاء وبداية الربيع حيث يهدأ فيه البحر بعد عواصف الشتاء . المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٧١.

(٢) نفس المصدر والجزء ص ٢٧١ .

(٣) المقريزى : الخطط – جـ ١ – ص ٢٠٢ .

(٤) قوص من مراكز محافظة قنا بصعيد مصر .

(٥) كان ثراء عيذاب سببه الأول التجارة والتبادل التجارى – المقريزى – خطط - جـ١ - ص ٢٠٣ .

٢ - الفرما :

عن الفرما يذكر المقدسى[١] بأنها " مجمع الطرق " إذ تصلها تجارة القاهرة المتجهة الى موانىء العالم ، فكانت البضائع تأتى من القاهرة بالبر على ظهر الدواب حتى تصل الى القلزم ثم تحمل فى السفن عبر البحر الأحمر متجهة الى بلاد الحجاز واليمن والهند والصين[٢] ولايفوتنا أهم قافلة على الاطلاق كانت تنطلق من القاهرة الى بلاد الحجاز[٣] فى العصر الفاطمى وهى قافلة " المحمل " أو كسوة الكعبة المشرفه فى مكة المكرمه فكان للخلافه الفاطمية المبادرة فى إرسال كسوة الكعبه من القاهرة والتى تم صنعها فى دار الكسوة بالقاهرة[٤] وأشرف عليها المغاربه من حيث الصنع أو الرقابة . وكان من يريد الذهاب من القاهرة الى مكة فى بلاد الحجاز يلزم الاتجاه الشرقى ، فاذا بلغ القلزم وجد طريقين احدهما بحرى والاخر برى وكان الوصول الى مكه من الطريق البرى يستنفذ حوالى ١٥ يوما ، ومن هذا الطريق تذهب معظم قوافل الحج من القاهرة أو القادمة من بلاد المغرب ومارة بالقاهرة فى طريق رحلة الحج .

٣ - دمياط :

برزت أهمية دمياط كمركز لطرق تجارة القاهرة فى العصر الفاطمى خاصه فهى تطل على البحر الأبيض المتوسط وترتبط بفرع النيل المسمى بفرع دمياط وهذا ييسر على تجارة القاهرة استخدام هذا الطريق لتنشيط التجارة الخارجية فى ذلك العصر .

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ١٩٥ .

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ص ٢١٢ .

(٣) ناصر خسرو : سفرنامه ، ص ٨٤ .

(٤) المقريزى : نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ٣٥٩ .

فكان يصلها تجارات من بلاد الروم على ظهر السفن الكبيرة المحمله بالتجار والبضائع للبيع والشراء [١] لتصل هذه البضائع للقاهرة عن طريق النيل لترسو فى حوض المكس ، فيذكر المقريزى " لقد بنى المعز حوضا فى المكس لترسو فيه السفن " [٢] ليصبح حوض المكس المطل على نهر النيل بالقاهرة أكثر أحواض نهر النيل إنخفاضا عنه فى الروضه والفسطاط ، ولقد بقيت المكس ترسانه القاهرة وميناءها حتى ظهرت بولاق حينما غير النيل مجراه [٣] ، ولقد رأى ناصر خسرو كشاهد عيان عند زيارته للقاهرة بعض السفن الراسيه فى المكس ويذكر أن طول الواحدة كان يبلغ ٢٧٠ قدماً وعرضها حوالى ١١٠ قدماً[٤] واذا كان ذلك الطول سليم فإنه يعنى ضخامه السفن وسعه المكس كميناء على استيعاب مثل هذه السفن .

٤ - الاسكندرية :

على مر العصور والأزمنة يبقى للاسكندرية التميز والأهمية فكانت ولاتزال بموقعها المطل على البحر الأبيض ترد اليها البضائع الواردة والصادرة الى البلاد المطله على البحر المتوسط ومما زاد فى أهمية الاسكندرية كميناء هو اتصالها بالخارج عن طريق البحر وبالداخل عن طريق النيل ثم لتصل للقاهرة عبر المكس [٥] المطل على النيل ، وكانت البضائع والتجارات القادمة أو المسافرة للقاهرة عبر الاسكندرية [٦] تتعامل مع دول أوروبا مثل البندقية وجنوه وغيرهما أيضا لتوسط موقعها الجغرافى كانت قريبه من بلاد المغرب فيصلها تجارته وبضائعه .

---

(١) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٢٢٥ .

(٢) ناصر خسرو : سفرنامه ، ص ٨٣ .

(٣) نفس المصدر السابق .

(٤) ناصر خسرو : نفس المصدر والصفحة .

(٥) عن المكس أو المقس : هو مكان تجبى فيه المكوس قسمى وعرف بالمكس وهو فى الاصل قرية يقال لها أم دنين كانت قبل تأسيس مدينة القاهرة سنه ٣٥٨هـ /٩٦٩م المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ٣٥٨ ومابعدها .

(٦) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ١٩٤ .

ويجب توضيح أهمية دور الخلافه الفاطمية فى تأمين طرق القوافل التجارية لحمايتها ولسلامه وتأمين التجارة والبضائع اذ لم تتأخر أو تهدأ فى تأمين الحدود أو المناطق التى تمر من خلالها التجارات الى الجهة المقصودة ، وإن كان هناك ما قد وقع من حوادث سطو أو اعتراض لبعض القوافل التجارية فان ذلك كان فى اضيق النطاق وتحت ظروف خاصه كانت لها مسبباتها ، خاصه فى وقت الازمات ولكن بالمقارنه بالفترات السابقه للخلافه الفاطمية نجد أن ذلك قليل الحدوث اذا ما قارناه بالاحوال الاقتصادية وأمن البلاد بصفه عامه قبل الحكم الفاطمى . وذلك بسبب اجراءات الأمن المشددة التى كانت تفرضها الحكومة الفاطمية ويطبقها أمراؤهم المغاربه خاصه فى الطرق المتجهة الى بلاد المغرب لدرايتهم بمسالكها وطُرقها ، كذلك كانت الحكومة الفاطمية على درايه بمن يقوم بمثل هذه الهجمات على القوافل فتقوم بالتفاهم معهم أو ردعهم لتجنب وقوع أىّ خسائر ، وحتى تنعم طرق التجارة بالأمن والسلام والتى ظلت كذلك طوال الحكم الفاطمى الى حد كبير[١] .

الضرائب المستحقة على التجارة الخارجية :

١ - الضرائب على التجار المسلمين :

كانت الضرائب التى قررتها الخلافة الفاطمية على التجار المسلمين المشتغلين بالتجارة الخارجية ضرائب كبيرة ، فقد كان لكل سلعه أو تجارة رسم أو ضريبه فمثلا كانت تفرض الضريبه على سلعه ما من بداية التجهيز والتحميل لهذه السلعه كان له ضريبه حتى نصل الى وصول السلعه او التجارة على ظهر الدواب أو السفن فكان لكل مرحلة رسم ، أيضا كانت كل سلعه مجهزة للابحار أو السير فى القوافل علامه تفيد أنها أنهت رسومها المستحقة عليها ثم تأتى مرحلة أخرى وهى التفتيش خاص للمراكب عند إقلاعها ، ويذكر المقدس عن ذلك فيقول :

---

(١) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٥٩ .

المقدسى : المصدر السابق ، ص ٢١٢ .

" كان على شط النيل بالمقس ضرائب ثقال" [١] ونضيف على هذا الجانب ما راه ناصر خسرو فى رحلته للقاهرة بقوله :

" سمعت من الثقات أنه يصل .. لخزانة سلطان مصر يوميا الف دينار مغربى ويصل ذلك المقدار مرة واحدة ويحصله شخص واحد ...يسلم الى الخزانه .. ولايجبى شيء بالعنف من اى شخص" [٢] .

كذلك كانت هناك ضريبة تجبى على التجارة الخارجية وتسمى المكوس [٣] وكان الفاطميون يفرضونها فى كثير من الأحيان ، فمنها المكس المقرر على البهار وكان بمقدار ثلاثه وثلاثين الفا ويزيد أيضا مكس يفرض على البضائع والقواقل وقيمته تسعة الاف وثلاثمائه تقريبا وان كان بعض الخلفاء الفاطميين يسقطون هذه المكوس ومنهم الحاكم بأمر الله ففى رمضان سنه ٣٧٨ هـ /٩٨٨م ، رفع الخليفه ضريبه المكوس عن أهل القلزم مما كان يؤخذ على المراكب والذى كان يقضى بأن يؤخذ مكس عن كل حمل درهم . وان عادت مرة أخرى فيما بعد[٤] .

٢ - **الضرائب التى كانت تجبى من التجار غير المسلمين :**

فكانت الضرائب التى تجبى على هؤلاء التجار تسمى بالعشر .

فيذكر القلقشندى " أن المقرر فى الشرع أخذ العشر من بضائعهم التى يقدمون بها من دار الحرب الى دار السلام اذا شرط ذلك عليهم" [٥] .

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٢١٣ .

(٢) ناصر خسرو : سفرنامه ، ص ٧٩ .

(٣) القلقشندى : صبح ، جـ ٣ ،ص ص ٤٤٦ ، ٤٦٧ .

(٤) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢١٣ .

(٥) القلقشندى : صبح ، جـ ٣ ، ص ٣٦٧ .

واذا كان العشر هو الضريبة المأخوذة من التجار غير المسلمين فنرى أن هذا المقدار قد يزيد أو ينقص خلال العصر الفاطمى وفقا لما يراه الخلفاء خاصه ، اذا رغبوا فى تشجيع التجار على جلب المزيد من تجارتهم الى البلاد فانهم يأمرون بنقص هذه الضريبه الى النصف لتصبح الخمس تشجيعا للتجارة الخارجية وفى بعض الاحيان يعفون منها ، فذلك كان متوقفا على السياسة التى يراها كل خليفه وفقا لرؤيته وأبعادها . وكانت هذه الضريبه أو المكوس على التجارة الخارجية لغير المسلمين تجبى مرة واحدة فى السنه حتى ولو جاء التاجر مرات بتجارته في نفس العام [١] .

وخلاصه القول أنه كانت هناك فى القاهرة الفاطمية المقومات والأسباب التى أدت الى انتعاش التجارة بها وما للمغاربه من دور فعال ومؤثر فى التجارة الخارجية سواء كانوا مشاركين فى التجارة مثل عروس بن يوسف وغيره من التجار أو من كان مسئولا من قبل الخليفه الفاطمى بالاشراف على حركة التجارة الخارجية،وقامت القاهرة بتصدير العديد من المنتجات والمصنوعات التى كان لها رواجها فى التجارة بين البلدان فى الشرق والغرب .

وكما أوضحنا أن القاهرة بصفتها عاصمه الخلافة الفاطمية كانت توافق على أن تستخدم طرقها على سبيل الوساطه لتمر عبر موانيها البضائع والتجارات الخاصه بالغير وعبر طرق ومنافذ التجارة من القاهرة الى البلدان وكأنها شبكة إتصال للقاهرة بالعالم من حولها مع توضيح للضرائب المستحقة والمقررة على التجار المسلمين وغير المسلمين خلال العصر الفاطمى .

---

(١) المقريزى : الخطط ، جـ ، ص ٢١٣ .

المستوى المعيشى للمغاربه فى القاهرة فى العصر الفاطمى :

لتحديد المستوى المعيشى للمغاربه فى القاهرة الفاطمية قسمنا أحوال المغاربه من حيث درجتهم ومكانتهم والمهن التى اشتغلوا بها كما يأتى :

أ - المغاربه المشتغلون فى الوظائف القيادية والإدارية .

ب - المغاربه المشتغلون فى الصناعة والتجارة .

ونبدأ بالمغاربه المشتغلين بالوظائف القيادية والادارية فى القاهرة ،ويتعين علينا قبل تحديد المستوى المعيشى لهم أن نتقدم بتحديد رواتبهم لنقف على مدى ما تمتعوا به من ثراء أو ما دون ذلك فى معيشتهم فكان من بين المغاربه المشتغلين فى الوظائف العليا صاحب المجلس الذى يتولى الاشراف على مجلس الخليفه ، وكذلك صاحب الرساله الذى يخرج برساله الخليفه الى رجال دولته وهو متولى زمام القصر وصاحب الدفتر فكان كل منهما يتقاضى راتبا شهريا قدره مائه دينار [١] ، وكان صاحب الباب[٢] يتقاضى مبلغ مائه وعشرين ديناراً [٣] .

وكان جعفربن على صاحب باب المعز هو أول من تولى الحجابه من المغاربه فى القاهرة ، كذلك ممن تولى من العسكر خدمة قصر الخليفة مثل حامل السيف وحامل الرمح[٤] فكان راتبهم سبعون دينارا فى الشهر . كما كان راتب الامراء أرباب القضب[٥] الفضيه يتفاوت

---

(١) النويرى : نهاية الارب ، جـ ٢٦ ، ص ٤٦ .

(٢) صاحب الباب هو حاجب الخليفه الفاطمى ويلقب الحاجب " بالمعظم " المقريزى الخطط ، جـ ٢ - ص ٢٣٤ .

(٣) المصدر السابق - ص ٤٥ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٤ ، ص ٩٥ .

(٥) وهم الذين يركبون فى موكب الخليفه بالقضب الفضيه ولكل منهم خمسه مماليك واذا ما اثبت منهم كفاءة واخلاصا يرقى الى مرتبه الامراء المطوقين وهم الذين يخلع عليهم بأطواق الذهب أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٤ ، ص ٩٦.

ما بين عشره الى مائه دينار [١] ، ومن الشخصيات الهامه فى الدولة الفاطمية ويتقاضى أعلى أجر فى ذلك الوقت هو الوزير الفاطمى فكان راتبه يقدر بخمسه الاف دينار شهرى بل ويعطى راتباً شهرياً لاولاده من مائتى الى ثلاثمائه دينار ، وفى كثير من الأحيان قد يصل راتب الوزير الى أبعد من ذلك بالاضافه الى الجرايات من الحبوب واللحوم ، والهبات والعطايا التى لاتنقطع[٢] .

أما عن قاضى القضاه فقد بلغ راتبه ألفان ومائتى دينار . خاصه وأن منصبه يتطلب العدل ، هذا وبالاضافه الى ما قد يحصل عليه القاضى من رواتب أخرى عندما يسند اليه ، وظائف اخرى مثل والى المظالم و والى بيت المال [٣] .

أما المحتسب فكان راتبه ثلاثين ديناراً وراتب صاحب الديوان " ديوان الانشاء " قدره مائه وعشرين ديناراً شهرياً بالاضافه الى العطايا والهبات [٤] .

وهكذا كانت بعض نماذج لرواتب كبار رجال الدولة الفاطمية من المغاربه فى الوظائف القيادية والادارية والذين كان لهم قصورهم ومنازلهم التى تدل على ما كانت عليه معيشتهم بصفه عامه من سعه .

ولقد ارتبطت الاسعار [٥] فى القاهرة وفقا لمنسوب النيل وما يترتب عليه من زيادة أو نقصان فى كمية المخزون من الغلال ، ومن ناحية أخرى أثرت الاوضاع السياسية وما قد ينتج من أمن أو اضطراب وانعكاس ذلك على الأسعار وأحوال المعيشة .

---

(١) حوريه سلام : النظام المالى، ص ٤٧ .

(٢) ابن منجب : الاشارة عن من نال الوزارة ، ص ٢٣ .

(٣) الكندى : الولاه والقضاة ، ص ٦١١ .

(٤) الجهشيارى : الوزراء ، ص ١٥١ .

- الخوارزمى - مفاتيح العلوم - ص ٧٨ . .

(٥) المقريزى : اغاثه الامه ، ص ٢٠ .

ويشير ابن الاثير الى الازمات الاقتصادية التى وقعت فى أواخر عهد الأخشيديين والتى كانت أحد الأسباب التى عجلت بدخول الفاطميين الى مصر ، ابن الأثير - الكامل - جـ ٩ ، ص ٢١١ .

ثانيا : المغاربه المشتغلون فى الصناعة والتجارة :

من الواضح عند دراسة الأحوال الاقتصادية للتجار والصناع فى العصر الفاطمى انها تحسنت حيث تمتعت البلاد بالأمن والاستقرار ، فكانوا يمنحونهم أجوراً[١] مُرضيه ، وتفيدنا أوراق الجنيزه عن هذا الجانب خاصه عن الصناع والتجار منذ عهد المستنصر [٢] الى ٥٦٧هـ / ١١٧١م ، فقد ورد بها أن عامل البناء يتسلم خمسه دراهم ووجبه غذائيه قيمتها حوالى درهم وربع يوميا ، وهذا الأجر أيضا كان يحصل عليه صانع الزجاج ، كما ورد فى عقد يرجع تاريخه الى ٤٤٩ هـ /١٠٥٧ م .

ومن الملاحظ أن صناعة البناء فى العصر الفاطمى هى الصناعة الوحيدة التى يدفع لها أجر يومى مصاحب له وجبة غذائية يومية،من المحتمل لمشقه هذه الصنعه [٣] .

---

(١) قسم المؤرخون مسألة الأجور الى قسمين : الأول الأجر العام مثل أجر النجار والحداد حيث يستحقوا أجورهم نظير عملهم ، أما القسم الثانى : فهو الأجير الخاص الذى يحدد أجره ، ليس بحجم العمل وإنما وفقا للزمن المستغرق ، سيد طه ، الحرف والصناعات : ص ٤٠٤ .

(٢) ورد لفظ أجير فى عقد بيع سنه ٤٠٦ هـ وكان اسم الشارى " متوسى بن ثيدر" لعله مغربى . جروهمان : اوراق البردى العربية – جـ ١ ، ص ١١٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٠٦ .

وتشير الوثائق الى عقود مشاركه بين اصحاب الأموال والصناع فى القاهرة فى العصر الفاطمى خاصه فى صناعه الزجاج والحلى والصباغه وغيرها ، وكانت عقود المشاركه تتراوح مدتها ما بين سته أشهر أو أكثر وفى بعض الاحيان مدى الحياة [١] ويتقاسم فيها الشركاء المكسب والخسارة ، ومن الطريف أنهم كانوا يقبضون مبلغا من المال للانفاق على الطعام عندما تقتضى الحاجة الى الاستمرار فى العمل فى غير الاوقات المحددة له .

والى جانب الاجور المقرره للصانع أو صاحب الحرفه كان منهم من يتعامل بذكاء ويقرر أتعابه التى يتقاضاها وفقا لمهارته او لقدراته .

ويذكر ابن الزيات " ان ابن الكيزانى الشاعر كان يملك معملا للقزازه [٢] والنسيج .... ومعه بعض العمال الذين يشتغلون معه وأن قيمة ما كان يدره عليه دولاب عمله فى كل يوم ثلاثه دراهم ونصف فكان ينفق على نفسه نصف درهم ويعطى أصحابه العمال الباقى وقدره ثلاثه دراهم " [٣] .

هذا فى الوقت الذى كان عمال وصناع النسيج يتقاضون أجورا تصل الى مئات الدنانير فى الثوب الواحد .

أما عن سعر متطلبات النسيج والحياكه من المواد الخام اللازمه للصناعه فكان وحدة وزن الخيط درهم واحد ، وكان ثمن درهم الخيط فى اسواق القاهرة ثلاثه دنانيرمغربية[٤] .

---

(١) جيوانين : دراسات فى التاريخ الاسلامى ، ص ١٦ .

(٢) القزازة وهى نسج الحرير ويسمى المشتغل بها قزاز .

(٣) ابن الزيات – الكواكب السيارة – ص ٣٤٠ .

(٤) المرجع السابق – ص ٤٠٦ .

وكان التاجر فى ذلك العصر يربح أضعاف ما كان يربحه الصانع لنفس المنتج لأن الصانع كان يقوم بتحويل المادة الخام الى منتج يباع وبذلك لايستطيع أن يبالغ فى تقدير الثمن الذى يبيع به ، أما التاجر فكان فى استطاعته تحديد أو تقدير الثمن الذى يريد ، وكان على مشايخ طوائف الحرفيه دور كبير فى رعايه مصالح الصناع ورفع أجورهم بما يتفق وتكاليف الانتاج مع هامش ربح بسيط وذلك تحت رعايه الدولة الفاطمية عن طريق المحتسب[١] الذى كان يسيطر على مجريات الأمور فى سوق القاهرة .

وعلى كل حال فان الوسيله الوحيدة لحماية الصناع هى رفع مستواهم الفنى والتقنى وهذا كان لرفع أجورهم وتحسين مستواهم المعيشى . وهذا ما كان للتجار والصناع من أجور تلقى الضوء علىٰ وضعهم ومكاسبهم وإن اختلفت ، ففى المهنة الواحدة يختلف مكسب أو اجر فرد عن آخر ، فاذا كان صانع ما يقوم بنسج الثياب ويتقاضى عدة دراهم نجد صانعا اخر يتقاضى مئات الدنانير لصنع ثوب واحد ، فكان ذلك كما سبق وذكرنا يتفق ومهارة الفرد سواء كان تاجر أو صانعا ووفقا لمهنته أو قدراته وأيضا وفقا لمن يطلب الشراء بمعنى أنه يختلف الأمر اذا كان المشترى أو الطالب لصناعه ما من أكابر البلاد أو من عامه الناس وكل على حسب سخائه .

وبعد عرض لرواتب المغاربه فى الوظائف القيادية والادارية وبعد عرض لبعض أجور وأموال التجار والصناع المغاربه فى القاهرة المعزيه نود أن نلقى الضوء على أهم المصروفات التى ينفقونها بها فى ذلك الوقت .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٣ ، ص ١٧٠ .

(٢) المقريزى : إغاثه الأمة – ص ١٤ .

(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ١٦٩ .

فكانت هناك ضرائب [١] ومكوس تخرج من أموالهم الى خزانه الدولة منها : الزكاه- المكوس – الأموال المصادرة .

فالزكاة : وهى فريضه وركن من أركان الاسلام الخمس : " خذ من أموالهم صدقه تطهرهم وتزكيهم بها " [٢] صدق الله العظيم .

وكانت تحسب على أساس السنة الهلاليه [٣] وتوزع طبقا للشرع فى العصر الفاطمى مباشرة من الأفراد ولم يبق ليؤخذ على صورة زكاة الا ما يؤخذ من التجار وغيرهم على ما يدخلونه للبلاد من ذهب أو فضه وحال عليه الحول ويؤخذ منهم بمقدار ٢٠/١ من الدنانير. والزكاة فى المذهب الشيعى لاتتخلف عن المذهب السنى فى شىء .

المكوس : وهى ضريبة تفرض على البضائع والتجارة [٤] وتقدر الخمس من هذه التجارة أو العشر أحيانا [٥] ، وفى الحقيقة أن هذه المكوس كانت تجى بصورة كبيرة فى العصر الفاطمى بصفه عامه وفى العصر الفاطمى الثانى بصفه خاصه فيذكر المقدسى بقوله "أما الضرائب فثقيلة " [٦] .

---

(١) كان الفقراء يرون أن العامل أو الصانع وغيرهما ممن لايبلغ دخله فى العام الواحد مائتى درهم فما دونه ، فهو يستحق الصدقه .

(٢) سورة التوبه ، آيه : ١٠٣ .

(٣) أبو يوسف : الخراج ، ص ٧٦ .

(٤) المقريزى : الخطط ، جـ ١- ص ١٠٤ .

(٥) أبو يوسف : الخراج ، ص ٧٥ .

(٦) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٢١٣ .

ولقد بلغ مقدار ما جبى من مكوس فى يوم واحد ٥٠ ألف دينار مغربى [١] ولقد إشتملت المكوس النشاط التجارى والصناعى فكان البيع لايتم الا على يد سماسرة – ويختم على عمليات البيع بخاتم الحكومة بعد سداد الرسوم [٢]

أما الأموال الصادرة : وهى ما يرد الى خزانه الدولة عندما يقع سخط الخليفه الفاطمى على شخص من رجالها فتصادر أمواله وتوضع فى ديوان " المفرد " كذلك هناك ما يسمى " بالنجوم " وهى ضريبه للدعوة تجبى لصالح نشر المذهب الفاطمى ، ولكن هذه الضريبه تدفع بالاختيار .

وكان ما سبق أهم المصروفات التى تحملها المغاربه بمختلف طوائفهم فى القاهرة الفاطمية ، ويجدر بنا أن نشير الى ما حدث من فترات شداند وسوء الأحوال الاقتصادية والتى عانت منها البلاد والسكان بإختلافهم فإن ما تضار به البلاد يضير سكانها ، لنتمكن من إيضاح صورة شبه كامله لأوضاع المغاربه فى ذلك الوقت – لنخرج بحقيقة وضعهم المعيشى فى تلك الفترة الزمنية من الحكم الفاطمى[٤] .

ونبدأ بعهد الخليفه المعز لدين الله الفاطمى وهو من الخلفاء الذين عرف عصرهم بالرخاء والثراء والاستقرار وأيضا بالمنح والعطايا ، وكان خراج مصر فى عهده يقدر بمبلغ ٣٫٢٠٠٫٠٠٠[٥]دينار على حد قول المقريزى وإن بالغ فى التحديد فان الغرض توضيح مدى التقدم الاقتصادى الذى كان سببه الاستقرار السياسى [٦] وبالتالى يرتفع دخل الفرد ، فكان ما يحدث فى البلاد من رخاء وكساد يعم على كافة المدن المصرية بما فيها القاهرة خاصة وهى عاصمة البلاد .

---

(١) ناصر خسرو : سفر نامه ، ص ١١٣ .

(٢) حوريه سلام : النظام المالى ، ص ٣٥ .

(٣) وهو ديوان يتصل بديوان المواريث الحشريه أنشاه أبو النصر حمدون وزير الحاكم، ابن ميسر: أخبار مصر : ص ٥٦ ، رسائل المستنصر : جمال الدين الشيال ، ص ١٨٢ .

(٤) المقريزى : الخطط – جـ ١ – ص ٨٢ .

(٥) المصدر السابق .

(٦) الداعى الفاطمى ادريس عماد الدين ، عيون الاخبار ، ص ١٨٥ .

وتجدر الاشارة الى أن الحالة الاقتصادية ومدى الرخاء الذى عاشه المغاربه زمن المعز انما كان نتيجة لدورهم وجهودهم الموفقة للنهوض وتأسيس عاصمة الخلافه الفاطمية ، فكان مستوى معيشة الفرد والجماعات على درجة كبيرة من التقدم ولقد تمتع المغاربه فى عهده بالكثير من الخيرات وكان عهدهم الذهبى كما يقال .

وكان عهد الخليفه العزيز بالله كعهد أبيه من إستقرار ورخاء لكنه اختلف بعض الشيء بالنسبه للكتاميين بصفه خاصه فنسمع عن أحد وجوه كتامه الذى ضاق به الحال وهو "أبا عبد الله محمد بن على بن سلمان الكتامى " فلم يجد بدا من أن يشكو حاله للخليفه العزيز لما هو فيه من العله وقله ذات اليد عندما قال " ... أنه ماله شيء يدفعه للطبيب " . وهذا يتوافق مع تقديم الخليفه للأتراك دون المغاربه الكتاميين [٢] فى الدولة الفاطمية ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أحوال بعض قادة المغاربه الكتاميين ولايشمل كل طوائفهم .

وتشير الروايات الى أن المغاربه تأخروا عن حضور مبايعه الخليفه الحاكم وعندما بايعوه قدموا بعض المطالب الخاصه بطائفتهم مؤداها إسترجاع نفوذهم وأيضا من بينها أن تصرف لهم مخصصات ماليه تدفع على ثمانى مرات فى السنه وتمت موافقة الخليفه على ذلك [٣] . ولقد تمتع المغاربه فى بداية حكم الخليفه الحاكم بأمر الله بالثراء وارتفاع مستواهم المعيشى الى حد كبير خاصه طبقة القواد والمشتغلون بالمناصب العليا بالقاهرة حتى كانت سنه ٣٨٧ هـ /٩٩٦ م ، اذا ارتفعت الاسعار وعم الغلاء بالقاهرة والبلاد .

فيذكر المقريزى " ارتفعت الأسعار ووقفت الاحوال فى الصرف فان درهم المعامله كانت تسمى بالدراهم المزايدة والقطع فتعنت الناس منها" [٤] .

---

(١) المقريزى : إتعاظ الحنفا - جـ ١ - ص ١٢٠ .

(٢) لقد سمح الخليفه العزيز بالله لوزيره يعقوب بن كلس كى يذل كتامه فقدم الاتراك عليهم فى العطاء - ابن سعيد - النجوم الزاهرة ،ابن منجب :الاشارة، ص ٢٥، ابن ميسر :أخبار مصر ،ص ٥٩.

(٣) فكان توليه الحسن بن عمار وزيرا من الكتاميين فى عهد الحاكم أكبر دليل على نفوذهم - المناوى - الوزارة - ص ١٠٣ .

(٤) المقريزى : اغاثه الامه ، ص ١٤،١٥ - الكندى : الولاه والقضاه - ص ١٧٠ .

ثم يزيد المقريزى بقوله " فتزايد سعر الدينار الى أن كان كل اربعه وثلاثين درهم بدينار وارتفع السعر وزاد اضطراب الناس "[١] .

وعقب ذلك أمر الخليفه الحاكم بأن يجمع ما فى أيدى الناس من هذه الدراهم المزايدة وأمر بإنزال عشرين صندوقا من بيت المال مملوءة بالدراهم " العتق " بخلاف الاخرى من المزايدة والقطع وفرقت على الصيارف وأمر فى الناس بالمنع من التعامل بدراهم المزايدة وأن يحملوا ما بأيديهم منها الى دار الضرب [٢]. وفى ذلك الغلاء وصل سعر الخبز كل اربعه ارطال بدرهم ، ولذلك أمر الخليفه بتحديد أسعار السوق للحد من غلاء المعيشة . وسعر القمح كل تليس [٣] بدينار والشعير عشرة وبيات [٤]بدينار .

والحطب عشر حملات بدينار وتم تحديد أسعار سائر الحبوب والمنتجات ولكن استمرت الازمة [٥] حتى وصل سعر حمله الدقيق بسته دنانير والارز كل ويبه بدينار ولحم البقر كل رطل ونصف بدرهم ثم مرت تلك الازمة وعادت الامور الى نصابها وعاد الاستقرار والرخاء .

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٥ .

(٢) يقصد بهذه الدراهم التى سكت فى دار الضرب وفقا للأزمة الاقتصادية .

(٣) التليس هوكيس من الخوص أو الصوف ذو سعه محددة .

(٤) المصدر السابق ، Dozy: Supp.Dict.Ar , p. 110

(٥) تلك الازمة التى حمل على اشتعالها برجوان خادم الحاكم حتى زادت بمقتل الوزير المغربى الحسن بن عمار . ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٥٠

ويمضى عهد الخليفه الظاهر دون حدوث غلاء ملحوظ أو شدائد تمر بها البلاد، اذ انتعشت فيها البلاد وكانت أحوال المغاربه بالقدر الذى يكفل لهم العيش الكريم فلم تكن هناك خطوط واضحه تفيدنا فى هذا المجال . ليأتى عهد الخليفه المستنصر الفاطمى ليشهد عصره متفرقات مختلفة من ثراء يشهده الناس وبعض الرحاله كناصر خسرو يصف لنا مدى الانتعاش الذى كانت عليه أحوال سكان القاهرة وقصورها وأسواقها وما الى ذلك ثم يأتى عهد الشدة العظمى التى كان وراءها الفتن واختلاف [١] أحوال القاهرة بالاضافه الى قله منسوب النيل وانعدام الزرع والغلال وعنه يقول المقريزى :" فارتفع السعر وتزايد الغلاء وأعقبه الوباء " [٢] .

ولقد وصل سعر رغيف الخبز عند إشتداد الأزمة بخمسة عشر دينار ومما وقع أيضا ان إمراة من أرباب البيوتات التى تسكن القاهرة أخذت عقدا من حليها والذى يقدر بألف دينار وعرضته فى سوق القاهرة على أن تأخذ بدلا منه دقيق وكان رد الكل عليها بالاعتذار . وذلك لعدم وجود الدقيق الى أن حصلت على كمية منه فلما رآها الناس فى السوق نهبوا ما معها ولم يصل الى يدها الا القليل [٣] .

فكانت هذه الشدة التى استمرت ٧ سنوات متواصله هزه عنيفه لأحوال المغاربه المعيشية والتى ضاقوا بها كسائر سكان القاهرة بل والبلاد جميعا ، فقد استبعد خلال تلك الفترة أربعه وخمسون وزيرا [٤] واثنان واربعون قاضيا وهذا مؤشر واضح للاضطراب والفوضى فنسمع عمن اشترى قمحا فنهب منه وهو فى الطريق ولم يبق منه الا سبع قمحات فى يده فيقول " أصبحت كل قمحه وقعت على بدينار " [٥] .

---

(١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ، ص ٧ .

(٢) المقريزى : اغاثه الامه ، ص ٢٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٧ .

(٤) ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٥٩

(٥) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

النويرى ، نهايه الأرب ، ص ٢٦ .

ويؤكد المقريزى أن ذلك الغلاء الذى وقع لم يكن سببه الا الاضطراب فى أوضاع الجند والفتن بينهم حيث يذكر " ولم يكن هذا الغلاء عن قصور من النيل وانما كان من اختلاف الكلمة ومحاربه الأجناد مع بعضهم " (١) .

ولقد أدت هذه الشدة الى خراب كبير وتغير كثير من أوضاع المغاربه فمن كان من ميامر البلاد أصبح لايملك الكفاف فكان منهم من يتنازل عن ما يمتلك من منازل مقابل القليل من القمح ليقتات به حتى كان عهد الوزير بدر الجالى (٢) ونادى فى العسكر والقواد من المغاربه وكل من وصلت قدرته الى عماره القاهرة أن يعمرها (٣) وبذلك بدأت الأحوال تتحسن وتتغير وبدأ المغاربه والسكان بالقاهرة يتنفسون الصعداء ليبدأ الرخاء من جديد ولترتفع الأحوال المعيشية مرة أخرى .

ومنذ ذلك الوقت وحتى سقوط الخلافه الفاطمية تأرجح دخل ومكانه المغاربه فى القاهرة فقد أخذ دورهم ومن ثم أحوالهم فى التقلص منذ ٥٥١ هـ /١١٥٦م وأصبح القليل منهم يتمتع بالمكانه الراقيه أو من كان له تجارته الرابحة فى القاهرة الفاطمية .

** ** **

---

(١) لقد استعان المستنصر على الغلاء بملك القسطنطينية الامبراطور قسطنطين التاسع فأجهز له ٤٠ الف اردب من الغلال الا ان مات الامبراطور قبل وصولها ، ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٦٠.

(٢) من المعروف ان عهد بدر الجمالى هو عهد نفوذ الوزراء العظام فى الدولة الفاطمية ومن بعده ابنه الافضل بن بدر الجمالى أمير الجيوش الى أن نصل لصلاح الدين الايوبى وسقوط الخلافه الفاطمية وقيام دولته . المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣١١ .

(٣) المصدر السابق ، نفس الجزء .